عمرة الدار

رواية

هويدا صالح

وزارة الثقافة



- عمرة الدار (رواية)
- هويدا صالح
- الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد
2007 م

- تصميم الغلاف: د. خالد سرور
- المراجعة اللغوية: سعاد عبد الحليم
ممدوح بدران
- المراسلات:

إقليم القاهرة الكبرى - شارع اليابان
أمام قاعة سيد درويش
الهرم - الجيزة فاكس: ٥٦٢٤١١٠

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 3904096

عمـرة الـــدار

عمـرة الــدار

الإهداء

إلى أبى عبد القادر صالح
وأمى صباح محمد مرسى



قاعة الشيخ " عليّ " كما كان يسميها الحاج صالح، والمقعد البحرى كما كان يسميها باقى سكان المنزل الكبير. هى سر من أسرار المنزل .يتم الحديث عنها همسا أو بالتلميح. وهى موضع أسئلة الصغار الدائمة .

حين يقترب موعد الصلاة. تفتح باب المقعد البحرى و تدخل. تنتظر سلوى قليلا من الوقت، ثم تسرع خلفها. دائما تأسرها الحصر المزينة برسوم الخيول والجمال التى تحمل الذاهبين إلى الرسول للحج .المخدات الصغيرة المغطاة بالقطيفة مرصوصة فى الأركان بدقة. كثيرا ما قارنت بين القنديل المعلق فى سقف المقعد وقنديل أم هاشم فى الحرم الزينبى. زاغت عيون الصغيرة، حين لمحتها صباح أسرعت لتشدها من يدها :

- تعالى هنا علشان متشغليش ستك فى الصلاة .

- سيبينى يامه أبص بس على الصور واستنى ستى .

- أنت مشبعتيش من الفرجة؟

أشارت بيدها على اللوحة الزيتية الكبيرة،تلك التى رسمتها يد فنان بدقة لموكب الحج. لرجل فى متوسط العمر تطاير شال عمامته الأبيض، وبالرغم أن جدها الشيخ صالح يقول دائما أنه جدهم الكبير الذى قدم مع بداية الفتح الإسلامى واستقر فى الصعيد، إلا أنها كلما رأته غاصت فى صورة المسيح الموضوعة فى بيت صديقتها. والحائط المقابل لها صورة خضراء فسفورية مكتوب عليها بخط كوفى شجرة الأنبياء، بجانبها مباشرة صورة مكتوب عليها بنفس الخط شجرة العائلة. يتسلسل فيها نسب العائلة حتى الدوحة العلوية.

- يا بنتى متوجعيش قلبى. ستك قربت تخلص استنيها بره .

أشارت لها الحاجة التى سلمت عن يمينها وشمالها فى تلك اللحظة فتركتها وخرجت، قرفصت سلوى بجانب جدتها والحاجة تختم صلاتها وتمر بيدها على جسد الصغيرة وتدعو .

- ادعيلى يا ستى أبقى دكتورة.

تمر يد الجدة على رأس الصغيرة وهى تتمتم بالدعاء والصغيرة ملهية بالصور :

ـ مين دول يا ستى اللى فى الصورة الكبيرة ؟

ترفع الجدة يدها فى الهواء، وتُشير على الجزء الذى يظهر فيه الرجل ذو الشال وتقول:

ـ ده جدنا الكبير اللى راكب على الحصان الأصهب وشاله مطيره الهواء .

ـ هوه كان فيه زمان تصوير زى الأستوديو اللى فى دير مواس يا ستى ؟

ـ لأ طبعاً ده رسم .

ـ بس يا ستى دى الصورة زى ما تكون حقيقة .

تعجبت الحاجة من فضول الصغار وفى صوت ملىء بالعطف والحب قالت لها :

ـ يلا يا ست البنات سمعينى اللى حفظتيه عند الشيخ جلال.

ـ تعرفى يا ستى سامية بنت عمى عنتر الشيخ حلف ليعلقها فى الفلكة زى الصبيان لما محفظتش الغاشية

ـ وانتى حافظة لغاية فين ؟

ـ حافظة لغاية التحريم اسمعك يا ستى ؟

تربعت الصغيرة وقلدت الشيخ (جلال) الذى يحفظّها القرآن فى الكتّاب وعقدت ما بين حاجبيها ووضعت يدها على أذنها ومالت بجسدها يمينا ويسارا وقرأت. خرج صوتها منغماً بالآيات القصيرة،

حاولت جاهدة أن تقلد نبرة صوت الشيخ جلال فجاء صوتها غليظاً وضمت شفتيها وبعد الانتهاء من التجويد قالت :

- يا بت يا سامية لو محفظتيش زى سلوى هعلقك فى الفلكة، سامعة ولا أبعت لجدك الشيخ صالح .

ضحكت الحاجة على طريقة تقليدها واحتضنتها، ثم أمسكت بيدها الصغيرة بين يديها الدافئتين وأخذتها إلى حجرتها لتعطيها مكافأتها .

- هتدينى سكر نبات يا ستى مش كده .؟

- هديكى سكر بنات علشان انتى زى السكر .

- وسامية يا ستى لما تيجى هتديها زيى ؟

- طبعاً هديها هيه كمان .

- ليه يا ستى؟

ثم سحبت يدها من يد ستها التى وقفت أمام الصندوق وأضافت وهى تتطلع بعيونها الصغيرة إلى عيون جدتها قائلة:

- وهيه شاطرة زيى ؟

مدت الجدة يدها إلى رأس الصغيرة، وجذبتها إلى صدرها. غابت فى دفء الصدر، ثم سحبت نفسها فجأة وتطلعت لوجه جدتها :

- ستى هى سامية ليه مش زيى، ومرات عمى دايما بتضربها .

أخرجت الجدة مفتاحا أصفر لامعا، نزلت بجسدها الأبيض الثقيل إلى الصندوق وهى تقول :

- معلش يا حبيبتى، أمك غير مرات عمك

- طيب يا ستى إديها علشان تبقى شاطرة زيى. . ولا أقول لك يا ستى لما تحفظ . دى بتلعب طول النهار ومش بترضى تيجى معى علشان جدى يحفظنا، ولما ييجى جدى " جود " تجرى فُريرة تكون أول واحدة قاعدة .

ابتسمت الجدة وهى تضع المفتاح فى مكمنه ثم نظرت إلى الصغيرة وبابتسامة كبيرة قالت :

- معلش بكرة تفهم وتبقى شطورة زيك كده .

أمسكت بقطعة السكر النبات ونظرت إليها كثيرا قبل أن تضعها سريعا فى فمها، وهى التى فكرت طوال الطريق من المقعد البحرى إلى حجرة جدتها أن تحتفظ بقطعة السكر، حتى تغيظ بها ابنة عمها،لمحت الجدة ذلك التوتر الذى اكتست به ملامح الصغيرة وهى تضع القطعة فى فمها، ثم تخرجها بسرعة، ثم لا تقدر على مقاومة الطعم الجميل الذى أصبحت تحس به وأدخلت القطعة سريعا مرة أخرى. الجدة تمد يدها إلى الصندوق مرة أخرى. تخرج قطعة أخرى تمنحها لها. نظرت إليها ملياً ثم دستها فى جيبها وهى تكاد تطير من فوق الأرض.

قبل أن يحل المساء تدخل الحاجة إلى القاعة. تخلع زجاج القنديل تغسله بليفة ناعمة مغطاة برغاوى الصابون ثم تشطفه جيدا بالماء وتحضر قماشة ناعمة وتدخلها فى زجاج القنديل وتلفها حتى تجففه تماما وتشعله، ولا تنسى أن تخفض الشعلة قليلا، وتركب الزجاج اللامع، ثم تعلقه وتخرج. تجد الصغيرة تنتظرها على باب القاعة . تعجب من أمرها فهى لا تلعب كباقى الصغار، بل تنشغل دائما بما تفعله الجدة وبما يدور فى حلقات الذكر. تدخل نفسها تحت ذراعها وتسير معها إلى حجرتها تجلس معها على سريرها وتسألها عن قاعة الشيخ (على). تبتسم الحاجة ومن خلال رموشها السوداء الطويلة تلمح الصغيرة دمعة تترقرق فى عيون الجدة. تتنهد وتقول للصغيرة إنه رجل مبارك يسكن القاعة البحرية. تتحير الصغيرة وتسأل جدتها:

- يعنى إيه مبارك يا ستى ؟
- يعنى مغطينا ببركته وساكن المقعد البحرى .
- ميت يعنى ومدفون فيها ؟
- ماحدش عارف جسمه مدفون هنا فى المقعد ده،

ثم تشير بيدها على الجهة البحرية التى يسكنها الشيخ وهى تضيف:

- ولا فى المقام اللى فى أول البلد عند الترب،

ابتسمت الصغيرة وهى تقول:

- قصدك المقام اللى الحاجة نبوية بتخدم فيه؟

ابتسمت الجدة وربتت على رأسها، وهى تهز رأسها بإشارة الموافقة.

- طيب وانتوا عرفتوه منين يا ستى ؟

- طلعنا لقينا أهلنا بيقولوا لنا دى قاعة الشيخ على وماحدش متأكد من دفنه فيها ولا فى المقام، بس اللى الكل متأكد منه إنه بيجمع أهل الخطوة للصلاة كل ليلة جمعة .

- ممكن يا ستى أطلب منه طلب ؟

- تطلبى منه إيه ؟

- ممكن أقوله يطلب من ربنا إنه يدى أمى ولد زى محمد ابن عمي؟

ضمتها الجدة فى صدرها، وهى تكاد تبكى وقالت بصوت المتأكد:

- ربنا يا عين أمك هيكرمها المرة دى أنا حاسة بكده .

- دى مرات عمى تحية بتخليها ساعات تعيط لما يتخانقوا .

- أمك غلطانة. إيه يعنى ولد ولا بنت ده انتى عند جدك بكل الصبيان .

- بس برضو أمى زعلانة دايما من كلامها، ثم سكتت قليلا وهى تتطلع إلى وجه جدتها الرائق وأضافت:

- هوه إحنا وحشين يا ستى؟

احتضنتها الجدة سريعا وقالت بحدة :

- لأ يا عين ستك أنت وإخواتك ما شاء الله ربنا يبارك فيكم بس هنقول إيه عقل نسوان فاضى .

- تعرفى يا ستى ناهد أختى شاطرة هيه كمان أشطر من كل ولاد عمي الصبيان حتى المدرسين دايما بيسقفوا لها، و ميرفت كمان. كلنا شاطرين .

- بكرة ربنا ينصفكم وينصف أمكم .

تحيرت الصغيرة من كلام الجدة ولم تفهمه تماماً، مرات عديدة قاومت النوم حتى ترى الشيخ (عليّ) يؤم أهل الخطوة فى صلاة الفجر فى القاعة البحرية، ودوماً يغلبها النوم ولا ترى شيئاً .

فى ليلة من ليالى الصيف جلست الصغيرة فى حجر جدتها، وهى تداعب حبات مسبحتها التى تشع نوراً فسفورياً فى الظلام ولسانها لا يفتر عن ذكر الله همساً وبعد أن انتهت من التسبيح. أدارت سلوى وجهها لجدتها وظلت تقبلها وتلح عليها أن تجعلها ترى الشيخ على وحلقة الذكر

- والنبى يا ستى نفسى أشوفهم مرة علشان خاطرى ومش هقول لخواتى .

وعدتها بأن توقظها حين يُقام الذكر بشرط أن تنام الآن .لم

تطمئن الصغيرة لوعد الحاجة. قاومت النوم وأخذت تدعو الله فى سرها أن يمكنها من رؤيتهم، قطعت على نفسها كل الوعود اللازمة، حتى يمكنها الله من رؤيتهم :

والنبى يا رب. لو خليتنى أشوفهم مش هغيظ البنات بدرجاتى العالية، ومش هفرح لما الشيخ جلال يضرب ولاد عمى. كمان يا رب هساعد سامية فى حفظ التحريم كمان، ولو عايزنى أديها السكر النبات اللى مخبيها كله يا رب.

وبعد أن نامت الجدة .تسللت من جانبها .ذهبت إلى القاعة البحرية، وبرهبة نظرت من ثقب الباب رأت أجسادا تتمايل، وأصواتا تهمس أحيانا، وتعلو أخرى والحجرة يملؤها ضوء أبيض .ارتعشت الصغيرة وجرت إلى حضن جدتها التى ما تزال نائمة على السرير النحاسى وهمست لها :

ـ شفتهم ياستى كانوا بيتمايلوا ويذكروا

ـ نامى ياعين ستك .

قالت الجدة وهى تعود بجسدها إلى الجانب الأيمن.

ـ والله العظيم شفتهم بجد .

قالتها الصغيرة بشوق بالغ وعيون مليئة بالدهشة. ردت المرأة من خلال عيونها النائمة :

ـ مصدقاكى بس نامى وبكرة احكيلى.

ثم رفعت يديها للصغيرة وضمتها إلى صدرها، وهى تبتسم من خلال رموشها الناعسة وطوقت جسد الصغيرة المرتعش بذراعيها العاريتين، ظلت تقرأ القرآن ويدها تطبطب عليها، حتى غرقت فى النوم، و نامت هى الأخرى وعلى وجهها ابتسامة راضية .

فى الصباح جرت سلوى على والديها وعمتها فاطمة، أخبرتهم بما رأت فابتسموا جميعا ولم يعلق أحد، ظلت تحلف وتقسم أنها رأتهم بالفعل، ولكنها لم تتأكد هل صدقوها أم لا؟ وصار حلم رؤية القاعة التى تشع نورا والأجساد التى تتمايل يراودها لسنوات طويلة.

الشيخ صالح :

هو ابن لأحد أقطاب الصوفية الذين ينتمون إلى الدوحة العلوية انحدرت أصول عائلته من الأشراف الذين سكنوا صعيد مصر فى بداية الفتح الإسلامى. أدخله أبوه الأزهر الشريف، ليتعلم العلم الظاهر - كما قال له حين بعث به إلى القاهرة - أو علوم الفقه والشريعة قبل تعلمه العلم اللدنى وعلوم الصوفية.

ظل منزله ملتقى الأقطاب والمريدين السالكين فى طريق الله، ومقصد أرباب الأحوال، حاول أن يزيل اللبس من أذهان بعض الناس الذين يفرقون بين الشريعة والحقيقة ويؤكد أن الشريعة والحقيقة وجهان لعملة واحد.

من الذين انشغل بهم وحاول تقريب هذه الحقيقة لأذهانهم ابناه عنتر والنضر وإن فشل مع الأول، فظل عنتر طوال عمره يميل للدنيا ولا يرى من الدين إلا أوقاتا تُصلى على استعجال فى المسجد، وإن ضاق الوقت يُصليها فى البيت أو الغيط ونجح مع الابن الثانى النضر الذى نهل من بحر الولاية وانتقل إلى جوار سيد الشهداء .

بعد أن ختمت الحاجة دولت أورادها الليلية غلبها النعاس، فنامت. رأت الشيخ علىّ يطفئ مصباح القاعة ويغادر المنزل. نادته، فلم يرد عليها. تعلقت بأذياله، فأشاح بوجهه، وتركها، ومضى، ظلت تبكى، وتناديه، وهو يواصل طريقه ولا يلتفت. استيقظت مرعوبة أزاحت ذراع الصغيرة التى تطوقها، وقامت مسرعة .دخلت حجرة الشيخ. كان مازال يختم صلاته أخبرته بانطفاء المصباح والشيخ الغاضب الذى غادرهم .ثَقُلَ هذا على نفسها. شعر صالح بالحزن، لأنه لم يُقم ختمة للقرآن منذ فترة طويلة .الظروف المالية للأسرة لم تعد تكفى، وإخوان الله يزيدون كل يوم. فلا يمر يوم إلا وينزل عليهم ضيوفا من الشمال أو الجنوب ولما يعترض عنتر الابن الأكبر، ينهره الأب،ويقول: إنهم ضيوف الله .طمأنها وأخبرها أنه سيحاول إرضاء الشيخ "على " ويُقيم له ختمة للقرآن :

ـ عندك حق يا دولت الشيخ(على) مايجيش فى المنام زعلان بالشكل ده إلا علشان ميعاد الختمة اللى اتأخر .

- طب وبعدين يا صالح لازم تتصرف وتعملها علشان الشيخ ميزعلش إحنا عايشين ببركته .

- ربنا يسهل هاخد من الفلوس اللى شايلها لمولد الحسين ونبقى نتصرف ساعتها.

- ماتخفشى البركة فى عنتر نبقى نكمل منه لو الموضوع قصر معانا .

- عنتر؟ ده الدنيا وخداه على الآخر ومعدش بيدفع حاجة لا فى الختمة ولا فى غيره وشايف إن ده بعزقة شقانا على الفاضى .

- متعُلشى همّ، ساعتها يحلها حلال.

نادى على عمر ابنه الأقرب إلى قلبه، دائما يُوكل إليه مُهمة رعاية الإخوان وإقامة ليالى الذكر، طلب منه أن يذهب إلى سوق الخميس ليشترى خروفاً من أجل الختمة والأخوان الذين سيحضرون من البلد والبلاد المجاورة بناءً على دعوته لهم.

اجتمع المريدون الليلة، ليقيموا حلقة ذكر احتفاءً بساكن المقعد البحرى، لعله يرضى ويشعل قنديله ويستريح خاطر الحاجة الخائفة على أبنائها .

بدأت فاطمة وصباح تساعدان الحاجة دولت فى إعداد الطعام، أما فايزة زوجة النضر، كانت جالسة على طشت الغسيل. وبختها الحاجة على جلوسها طوال النهار دون أن تفعل شيئاً:

شخصيات تاريخية : الحضر - عشر -
عبد الرحيم -

– إنت ياعدلة هتفضلى النهار بطوله على شوية الهدوم ؟

ـ طب أعمل إيه يا أمه؟ ما أنت عارفة ابنك، إن مكنتش الهدوم تشف وترف يبهدلنى .

اغتاظت الحاجة التى تحرص على أن يكون كل شىء معداً لاستقبال ضيوف الله وخوفها ألا يفوتها شىء، رمتها بنظرة قاسية، واتجهت إلى عبد الرحيم الجالس على سحَّارة العيش فى حجرة الخزين ناظرا إلى لا شىء .كان الكل مشغولا عنه إلا عيون أمه، شدته من يده لتغير ملابسه، تملص من يدها وعاد ذاهلا يجلس فى مكانه.طبطبت على ظهره .سار معها إلى حجرتها، ألبسته جلبابا نظيفا وأدخلته إلى القاعة. وقف بجانب الرجال الذين يتمايلون على إنشاد الشيخ من بردة البوصيرى، أخذ يتمايل معهم. ظل يهتز فى تشنج والعرق يسيل من جسده الفتى ولما انفض الذكر ألقى بجسده على الأرض وجلس مسندا ظهره للجدار ينظر عيون الرجال المنتشين ولا يتحدث، حاول أبوه ممازحته :

ـ أنت قنديل الحلقة يا شيخ عبد الرحيم :

كان هائما فى ملكوت الله فهو الحاضر الغائب. قال الشيخ لعمر:

– ابدأ يا شيخ عمر فى ذرى المحبة الشامخة وفى آفاق النور والإشراق. طف بنا أقطاب الولاية فى رحاب الملكوت الأعلى واغش

بنا حضرات القرب والوصول.

ابتسم عمر راضيا وأخرج من صندوق الكنوز لطائف المن للإمام أحمد بن عطاء الله السكندرى، ولما وصل عمر فى حكيه أن الإمام لشدة قربه من طه النبى كانت تطوى له المسافة بينه وبين القبر الشريف، حتى أنه كان يضع يده على مقصورته وهو جالس فى مصر .انتشى المشتاقون إلى حضرة المولى عز وجل وعلا صوت الشيخ :

- اللهم صل على طه الحبيب .وإيه كمان يابنى سمعنا الله يفتح عليك .

انتبه عبد الرحيم وتمتم ولا أحد يدرى إن كان يصلى على النبى أم أنه مازال سارحا فى ملكوته. لا يعى شيئا مما يقال وهو يتمايل بجسده معهم،ولكنه لا يشاركهم فرحتهم بأخبار الأقطاب والأولياء لاحظ الشيخ شفاه ابنه التى تتمتم فقال للذاكرين :

- والنبى الفاتحة يا إخوان محبة فى النبى يمكن يعفيه ربنا ويكشف غمته .

علا صوت الذاكرين بالفاتحة وامتلأت عيون عمر بالدموع واختنق صوته. كانت الحاجة واقفة هى وباقى النساء وراء الباب .رفعت يديها للسماء وعلا صوتها بالدعاء، حتى يمكن لملاك واقف يشاهد الجمع المنتشى أن يطير دعواتها إلى السماء البعيدة ويربت فى نفس

الوقت بيده الحانية على قلبها ويبرّد ناره. دمعت عيناها وهى تقرأ الفاتحة وتتوسل إلى الله أن يشفى ولدها:

- يا رب يشفيك يابنى ويزيل غمك،

ثم رفعت عينيها ويديها عاليا وهى تضيف:

- يا رب يا عالم بحالى وغنى عن سؤالى تشفيه بحق جاه المصطفى .

شعرت كأن يدا باردة توضع على صدرها، كان الملاك المنتشى بالذاكرين مهموما بدعواتها، فبرَّد نار قلبها، وطار بدعوتها إلى السماءات البعيدة.

استمرت الحضرة متوهجة بنور شموس المعارف، وحين انتشى الذاكرون باللطائف .

قال له الشيخ :

- سمعنا ترجمان الصوفية واغترف لنا من معين السر الإلهى .

ألا إن أمر الله أمر رســـوله
فإن رسول الله عنه يترجـــمُ.

وما هو إلا واحد بـــعد واحد
يكون على شرع به الله يحكـــمُ

فتختلف الآيات وذلك عين الحق في كل شرعه والكل منه ومنهمُ.

ثم أخرج عمل طبقات الإمام الشعرانى وبدأ يقرأ فيها:

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

-إى والله يا بنى فشموس المعارف لا تحتاج إلى دليل،وتكتحل بضياء الولاية بصيرة كل عارف .

بدأ يحدثهم عن الإمام الشعرانى صاحب كتاب الطبقات الكبرى وكيف أنه أورد فى كتابه ما أنعم الله على الكرام من منح وهبات اصطفائية تبرز فضله سبحانه على أوليائه وتفردهم فى ذروة الولاية والتحقق والتمكين .

قال أحد الذاكرين:

- سمعنا يا شيخ عمر سر الصفاء الربانى وخلينا نصعد فى معاريج الحب الإلهى.

انطلق صوت عمر صافياً رائقاً:

جمالك فى كل الحقائق سافر

وليس له إلا جلالك ساتر

تجليت للأكوان خلف ستورها

فنمت بما تخفى عليه السرائر

ردد الأخوان وراء عمربصوت متناغم،فطرب عبد الرحيم الذى كان ما يزال يتمتم ووقف متمايلا. يعلو صوته ويقول الله حى .كان الملاك ذاته الذى حاول تهدئة قلب أمه يقف بجانبه يهدهده وهو يذكر، بل كان ذلك الملاك ذاته يتمايل على إنشاد عمر ويطرب، ولكنه ينظر

من طرف خفى إلى الحاجة الواقفة خلف الباب وقلبها يخفق من صوت ابنها الذى يردد الذكر.يبتسم الملاك ويشعر بالرضا ويواصل الذكر مع عبد الرحيم الذى اندهش الإخوان من تصرفه وبدأوا يقفون بجانبه واحدا وراء واحد ويرددون، فقال الشيخ صالح :

- عبد الرحيم يسبح فى خضم الأنوار الإلهية و يناجى معشوقه .

وقف الشيخ بجانبه يردد الله حى. الله حى

بعدها ردد عمر أبيات عن سيدنا إبراهيم الخليل ولماذا سمى بالخليل ؟

قد تخللت مسلك الروح منى

ولذا سمى الخليل خليلا

فإذا ما نطقت كنت كلامى

وإذا ما صمت كنت العلا.

الفريسة

كان المنزل الكبير يتوسط الشارع الرئيسى فى البلد. فلم يكن من عادة الناس فى هذا البلد أن يُطلقوا أسماءً على شوارعهم اللهم إلا قولهم شرق البلد، وغربه، أو بحرى البلد أو وسطه.

فى قلب البلد تماما يقع، كان يتكون من طابقين. الطابق الأول فيه المقاعد من ناحية ومداود البهائم وصفائح الحمام فى الناحية

الأخرى، تفصل بينهما مساحة كبيرة، وحائط حرصوا على إقامته، حتى يفصل المقاعد عن الزريبة، و حَمَام الحاجة الذى يعشش فى صفائح معلقة على جوانب الحوائط. وكذلك توجد شجرة توت كثيرة الفروع. تظلل وسط الدار الواسعة .

عند بناء ذلك البيت لم يجدواعروقاً من الخشب طويلة بما يكفى لتظليل وسطها ،فاكتفوا بالتوتة التى كانت قصيرة وقتها. لما اقترح البنّاء الذى بنى له البيت أن يقطعها، ويستفيد بالأرض فى بناء قاعة للضيوف الذين يعرف كثرتهم فهو يذكر خلفهم حين تقام الحضرة قال له :

- تعرف يا بوى صالح لو قطعنا الشجرة دى هتوفر مساحة كبيرة تبنى مقعدين وأكتر، وكله هيوسع على ضيوفك .

- لا يا أسطى طه مش ممكن أقطع شجرة كانت بتظلل على خلق الله .

- بس دى هتوفر لك مساحة ياما وأنا عارف ضيوفك كتير قد إيه.

- الدار واسعة، ليه نضيقها على نفسينا، أهى بكرة تفرّع وتظلل تحتيها والعيال ياكلوا من خيرها .

الدور العلوى، يتكون من حجرات ثمانٍ متقابلة ومجهزة لسكنى الأبناء الأربعة كل بزوجته وأبنائه.

الابن الأكبر هو عنتر جهم الوجه، حاد النظرات، لا يبتسم إلا قليلاً يضع كل همه فى العمل، لم يسمعه أحد يوما يمازح أحداً .لا هم له إلا العمل ويكتفى بالصلوات المفروضة فقط .لا يشارك الأب حلقات الذكر، حين أكمل الثانية والعشرين عرض عليه أبوه ابنة خالته تحية قال له :

ـ يا عنتر إيه رأيك يابنى نخطب لك تحية بنت خالتك ؟

ـ اللى تشوفه يابا أى واحدة والسلام .

ـ يعنى يا بنى مفيش حد معين فى راسك ؟

ـ لأ يابا، بنت خالتى كويسة .

ـ على بركة الله يلا يا حاجة كلمى أختك الأول.

لما عرضت عليها أمها الفكرة اغتمت تحية، فقد كانت تنتظر أن يتقدم لها عمر فهى تميل إليه وتتمناه، و يقاربها فى السن أما عنتر فيكبرها بعشر سنوات .. تدرك أن عمر يضع عينه على صباح ابنة شيخه محفّظ القرآن، عرفت ذلك من وداد صاحبة فاطمة والتى ستصير صديقة لصباح فيما بعد، تساندها وتكتم أسرارها، لا تعرف لماذا كرهت تحية وداد فى تلك اللحظة، ولم تغفر لها يوماً نقلها لهذا الخبر إلى صباح ذاتها، ومما زاد فى كره تحية لوداد أنها صارت صديقة لصباح، بل وتحرص على إغاظتها حين تقف معها على الباب وتحادثها بصوت عال، تحرص على أن يصل إلى مسامع

تحية التى لم تكن بحاجة لصوت عال، فهى دائمة التنصت على أحاديثهما.

وافقت تحية على مضض على الزواج من عنتر بعد أن قالت لأمها :

- بس يامه ده كشر وما بيضحكش أبداً .

- يعنى انتى عايزة أراجوز تتجوزيه .

- لأ مش قصدى،طيب ما عمر مش أراجوز بس وشه بشوش.

- يا بت ده عنتر راجل وشغال، وليه مستقبل بكرة يمسك أرض العمدة كلها .ومش بعيد يبنى لك سراية زى سراية العمدة .

- اللى تشوفيه أهو راجل والسلام .

تحية (الفريصة)أطلق عليها هذا الاسم الحاج محمد الجنى الصالح الذى يركبها. ينزل عليها ساعة الغضب. يظل يضربها ويمرمغها في الأرض، حتى تخور قواها ولا تقوى على فعل شىء، الكل يعرف حكاية الحاج محمد الذى ركبها وهى بعد صغيرة حين كانت تلعب مع البنات فى (الشيخة حابسة) تلك البقعة من الأرض الكثيفة الشجر والنخل و الموجودة فى منطقة وسط بين الحقول ومنازل القرية. ترتعش فرائص الواحد حين يمر عليها ليلا.لا يطمئن إلا حين يمد الخطو وهو يردد ما يحفظ من آيات قرآنية حفظها طوال عمره .ربما تتوه من الواحد فى تلك اللحظة هذه الآيات ويحاول

تذكرها فلا يقدرهو الذى حفظهاعن ظهر قلب تحت وقع خيزرانة الشيخ جلال فى الكتّاب وهو بعد صغير.ربما لحظتها يعجب من نفسه، ففى موقف آخر يجد نفسه حافظاً لتلك الآيات التى تفر منه الآن، كانت تحية تلعب مع البنات وسط النخيل وتتحدى من يمكنه المحافظة على الكرة دون أن تفلت من يدها وهى تواصل الأغنية (واحد اتنين سرجى مرجى .أنت حكيم ولا تمرجى. أنا حكيم العيادة . العيان أديه حقنة والمسكين أديه لقمة . نفسى أزورك يا نبى ياللى بلادك بعيدة فيها أحمد وحميدة)كانت عيون البنات متعلقة بيدها التى تطلع وتنزل بالكرة المطاطية .كل واحدة تتمنى فى سرها أن تقع من يدها .كانت تحية الوحيدة التى تقدر على إكمال الدور، وربما تبدأ أغنية جديدة الكرة تقفز وترتد تحت كفها، دون أن تفلت منها. سقطت الكرة من يدها، ولأول مرة قبل أن تصل لنهاية الأغنية فرت منها الكرة المطاطية الصغيرة. قالت لهن تعالين ندخل وسط النخيل حتى نأتى بها ولكن الصغيرات اللاتى يسمعن كثيراً عن جزاء من يتعدى على الشيخة جابسة، ويتوغل بين أشجارها خفن وقررن العودة إلى بيوتهن، فأمهاتهن لابد يجهزن الطعام فى تلك اللحظة، ولكن تحية التى تريد دائما أن تثبت أنها أشجع من كل الأولاد الذين يرفضون إشراكها معهم فى لعبهم لأنها بنت ولا تقدرعلى المخاطرة فى تسلق النخيل أو أشجار التوت أصرت على الدخول إلى دغل

النخيل المتكاثف، زحفت على بطنها وأمسكت بالكرة الصغيرة وعادت منتصرة. نظرت حولها فلم تجد الصغيرات اللاتى هربن لما سمعن الصرخة العالية .ارتعش قلبها وأحست بشعر رأسها يقف حين سمعت تلك الصرخة التى لم تعرف مصدرها. صرخت وظلت تجرى وتتعثر إلى أن انكفأت وغابت عن الوعى. مرت ساعة ولم تجرؤ إحداهن على البوح بسر الصرخة المرعبة. كل واحدة دخلت مسرعة، ولَبَدَتْ فى حضن أمها ولم تحدّث أحداً بما سمعت. لم ينقذها إلا فلاح كان يمر فى تلك اللحظة يسحب بقرته وراءه.ويردد موالا يُطمْئن به قلبه الذى يرتعش دائماً دون سبب وهو يمر من هذا المكان. وجدها غائبة عن الوعى .تعرف عليها على الفور. كانت صديقة لابنته الصغيرة، وتلعب معها أمام البيت حينما يحل المساء هى وباقى الصغيرات، عاد بها إلى أمها . جرت على أختها الحاجة دولت لترقيها، وتدعك جسدها الذى يَبُخُّ ناراً بالخل وماء الورد المغموس فيه وريقات من النبق .ظلت الصغيرة ثلاثة أيام تحادث أشخاصاً غير موجودين، فى صباح اليوم الرابع أفاقت تماماً .نسيت كل ما يتعلق بالحادثة وإذا سألتها البنات عما رأت داخل الدغل ترفض التحدث، بل تدعى أنها لا تعرف شيئا عما يتحدثن به، بعدها إذا غضبت أو تشاجرت مع أحد تظل تصرخ، وترتمى على الأرض إلى أن تشعر بالتعب، وتغيب عن الوعى، ولا تفيق إلا بعد ساعات،

وترفض الحديث عما تشعر به أو يحدث لها .فى أوقات الصفا القليلة بينها وبين خالتها الحاجة تحكى لها عن الحاج محمد الذى يحذرها دائماً من الإساءة إلى أحد .يخبرها أحياناً ببعض الأحداث التى ستقع، وفيما بعد حين تتزوج صباح من عمر وتحمل منه ويقترب موعد الولادة كانت تؤكد لعنترأن ما فى بطنها أنثى، فيغضب ويتهمها بالجهل والتعدى على حرمات الله حين تتنبأ بأمر كهذا، ويتمنى أن يخيب رجاؤها وتنجب زوجة أخيه ولداً حتى يفرح قلبه، ولما تلد صباح بنتاً كان ينظر إلى زوجته متحيراً، ولا يعلق وهى تنظر إليه متحدية ولا تجرؤ هى الأخرى على التعليق. كثيراً ما تنبأت بأمور صغيرة يصدق معظمها ولا يعلق أحد على نبؤاتها وكثيراً ما لجأت إليها الجارات ليسألن عن أمر يغيب عنهن أو يطلبن رأيها فى أمر يعزمن على اتخاذه، حاول زوجها أن يمنعها من ممارسة طقوسها السحرية هذه :

- يا مره يعني نبقى بيت صلاح وزهد وإخوان الله وأنت تفضحينا بعفاريتك . .

- يا عنتر لا تتطاول على الحاج محمد، مش هقدر أمنعه عنك لو أذاك.

- يأذينى إيه يا مخرفة، لو شفتك شغالة بفتاويك دى للحريم هقطع رقبتك.

ـ وهو أنا باخد من حد فلوس، دى خدمة لوجه الله.

ـ الله ياخدك ويريحنى منك.

كان بينه وبين نفسه لا ينكر أن كثيراً مما قالت له على انفراد فى أحداث تنبأت فيها للعائلة بأمر من الأمور قد وقعت بالفعل، ودائماً يقول لها: إن هذا مجرد صدفة .

ساءت أحوال العائلة. أنفق الوالد كل ما كان يملك على المريدين وأهل الطريق. لم يتبق من أراضى الأسرة الشاسعة إلا بضعة أفدنة تعد على أصابع اليد الواحدة ورثها الشيخ صالح عن أبيه، كما ورث حبه لأهل الطريق. حاول جاهداً طوال تلك السنين أن ينمى هذه الفدادين القليلة ولكنه فشل .بالكاد حاول الحفاظ عليها. كان المنزل الكبير حلقة الوصل بين المريدين الذين يتجهون شمالا لزيارة آل البيت وشيخ العرب و الدسوقى، والذين يتجهون جنوبا لزيارة الرفاعى و القشيرى وعبد الرحيم القناوى. الكل يحط رحاله، يستريح ويأخذ واجب الضيافة ثم يواصل السفر إلى مولاه الذى يطلب صحبته.

عمرة الدار

استيقظت الحاجة على نداء عمرة البيت .توضأت، وصلت ثم أحضرت مترد الخميرة التى ربتها فى الليل .وجدت الخميرة فارت

وزادت على حواف المترد بسملت، و صلت على أبى فاطمة وكبتها فى الماجور الكبير، وبدأت تدعك فيها الدقيق حتى تماسك. بدأت ترفع قطع العجين وتضربها مرة أخرى فى الماجور ظلت ترفع العجين لأعلى وتضربه فى باقى العجين ثم غطته بقطعة قماش بيضاء مخصصة له. شعر الصغار بخبطاتها فى العجين فقفزوا مسرعين فهم يعشقون يوم الخبيز. ففى هذا اليوم يأكلون كل ما يحبون. أرز مدسوس فى الفرن وبطاطا مشوية فى جمر النار الذى يخلفه الخبيز. وإن أسعدهم الحظ تخرج لهم الحاجة الأرغفة مسلوقة لم يتم نضجها وتفرش فى وسطها القشطة والجلاب.

نادت الجدة على سلوى وطلبت منها أن تحضر لها (البشكور) الحديدى لتخرج تراب الفرن قبل أن تشعل فيه النار. جلست الصغيرة بجانبها، فأبعدتها بيد حانية عن مدخل الفرن، ذكرت اسم الله قبل أن تدب الرأس الحديدى فى التراب المتراكم من المرة الفائتة، أبعدت التراب عن فتحة الفرن وأشعلت النيران ولم تنس أن تقول لساكنيه :

(لموا عيالكم النار جيالكم) .

سألتها الصغيرة دهشة:

- هو فيه حد بيسكن الفرن يا جدتى؟!

قالت:

- أيوه، عمرة الدار.

- وهيه طيبة يا ستى .

- أيوه بس متحبش حد يضايقها هيه وعيالها .

- هيه ليها عيال يا ستى ؟

- أمال. زينا بالظبط ليها عيال، وبياكلوا وبيشربوا بس ملناش دعوة بيهم.

عرفت الصغيرة لحظتها لماذا تبعدها عن اللعب أمام الفرن وإن يوما وقعت أمامه فزعت ورشت الماء مكان سقطتها .ظلت ترقيها بالأدعية والقرآن: نادت على صباح وقالت لها:

- قومى العجين خمر.

قامت مسرعة، وهى تفرك عينيها. تعثرت على السلم، فسخرت منها الحاجة ودخلت على فاطمة، حين تكاسلت ضربتها بعود الحديد على فخذيها العاريتين ضربات خفيفة. رفعت صباح الغطاء عن العجين ثم قالت :

- بسم الله ماشاء الله على عجينك يا أمة ولا بنت أربعتاشر.

– طب يا عدلة كنت ارفعى الناموسية اللى رخياها على الآخر يمكن كنت صحيتى بدرى وريحتى دراعى اللى اتخدل على الآخر.

خبطت فاطمة على ذراعى الحاجة اللتين يغطيهما العجين وقالت:

–اتخدل ؟ اللهم صلى على النبى الخير كله فيك يا أم على.

ثم بدأن الخبيز وحين فاحت رائحة الخبز أقبل الصغار :

- جعانين يا ستى.

-اصبرى شوية يا سلوى، أبوك وعمامك يصحو ونفطر كلنا.

-عايزة رغيف مسلوق يا ستى.

وبختها صباح، ولكن الحاجة أمرتها أن تُخرج رغيفا لم ينضج تماما، ودخلت به حجرة الخزين، كشفت مترد اللبن .قشطت وش المترد .وضعته في قلب الرغيف الساخن، ثم دفست يدها فى زلعة العسل .أخرجت قبضة من الجلاب المتراكم فى قعر الزلعة، ووضعتها على القشطة، ولفت الرغيف وأعطته للصغيرة،فارتمت سلوى على ظهرها تقبل رأسها فقالت صباح:

- يا بكاشة يا بتاعة بطنك.

- دى بتحبنى بجد مش علشان الرغيف السخن.

- إى والله يا ستى بحبك قوى.

ضحكن جميعا. تركتهن يكملن الخبيز وقامت لتعد الطعام، كان عبد الرحيم قد أحضر قرموطا كبيرا ألقى به سعيدا فى طشت الماء الذي جهزته الحاجة. جلس يحكى كيف اصطاده:

- يا مه سمعته بيضرب فى الساقية بديله ويخَشْول فى الميه افتكرته عفريت وخفت.

- وعمر كان فين؟؟

– عمر ضحك وقالى ده قرموط ونط فى حوض الساقية، وأنا قدامه وربط جلبيته من الأكمام وفتحها لغاية ما القرموط دخل فيها وربطها.

أمسكت الحاجة القرموط بيديها الخبيرتين وقالت واثقة أن وزنه يزيد على عشرة أرطال. أرادت أن تذبحه ولكن الصغار أقسموا عليها بالشيخ (على) أن تؤجل ذبحه، وأن تدعه فى الطشت المليئ بالماء حتى يلعبوا به قليلاً.

نزلت الجدة على رغبتهم، تركته يلعب فى الطشت، حين يثيره الصغار بعصيهم القصيرة يقفز قفزات متلاحقة تجعلهم يزقططون، وبدأت تعد له الطواجن التى ستدفسه فيها. بعد انتهاء الخبيز أخرجت الطواجن من الفرن، وجلسوا جميعا لتناول الطعام وعبد الرحيم يسرد تفاصيل مغامرته لصيد القرموط للمرة الرابعة، ولما يضحكوا منه يستشهد بعمر الذى يكتفى بهز رأسه والابتسام، فيزداد حماس عبد الرحيم ويعد أمه بصيد كثير فى المرة القادمة التى سيذهب فيها مع عمر لرى الأرض، ولمّا يتدخل النضر ليسخر منه يسكته الشيخ صالح بنظرة قاسية، وتطبطب الحاجة على ظهر عبد الرحيم وتدعو له بالخير.

عرف الشيخ أن السبيل إلى العلم اللدنى هو تربية النفس وتطهير القلب من الأغيار لتحل فيه الأنوار، أكد له والده أن الرجل لا يصير معدوداً من أهل الطريق إلا إذا كان عالماً بالشريعة المطهرة مجملها ومبينها، ناسخها و منسوخها، خاصها وعامها، فكان عليه أن يتفقه فى الدين، ويتقن التنزيل إلا أن موت الشيخ الكبير جعله يترك الأزهر.

عمل فى تلك الأفدنة القليلة التى تبقت من أملاك الأسرة، ولكنه لم ينس التصوف الذى كان يمثل الجوهر الأعم فى شخصيته. جمعت ثقافته بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة، وهما وجهان لعملة واحدة، الوجه الأول ظاهر للعام والخاص أما الوجه الثانى باطن لا يطلع عليه إلا الخواص. من ينظر إلى الشيخ صالح وهو يمسك بالفأس ويعلو بها فى الهواء ثم ينزل بها، ليقطع بعض الأخشاب ليتدفأ بها أو يصنع منها أوتاداً للبهائم، ويربط وسطه بطرف جلبابه ويعتدل من فترة لأخرى ليجفف عرقه أو يشرب بعض الماء من القلة التى يلفها بقطعة خيش يحرص على أن تظل مبللة، حتى تحافظ على برودة الماء لا يصدق أنه نفس الرجل الذى يتوسط حلقة الذكر ويعلو صوته بالإنشاد بقصائد ابن الفارض أو ابن عربى .

الابن الثانى بعد عنتر هو عمر، شفيف الوجه، طيب القلب.

نظراته حانية. تزوج من ابنة شيخه. حفظ القرآن على يديه، وقرأ فى كتبه عن الصحابة والأقطاب والناس الذين تطوى لهم الأرض طياً .يسيرون على الماء .يقفون على قمة الدنيا، قدم فى الشام وأخرى فى اليمن. تبسط الأرض وتطوى حسب إرادتهم.

أما الحاج نضر - كما يحب دائماً أن يناديه الناس - فهو الابن الثالث.. هو أبعد ما يكون عن الحج والحجاج .. يناديه أخوته و أصدقاؤه بالحاج نضر. أبوه يسخر منه دائماً، ويقول: (حاج على الفرن) تلك الجملة التى سيطلقها الشيخ أحمد ابن الحاج نضر نفسه بعد ذلك بسنين طويلة على صديقه الحاج محمد الذى يطلب منه أن يجلس معه على باب الدكان حتى يتفرج على البنات العدالة وهن ينزلن من الجبل ويتجهن إلى الغورية حتى يتفرجن على العطور والملابس، ويرفض الشيخ أحمد الجلوس ويقرر أن يتجه إلى أبيه الحاج نضر- الذى صار حاجاً حقيقياً ولزم جوار عترة النبى - فى الحسين، حتى يشاركه حلقة الذكر الذى سيقدمه فيها لأول مرة ليقود الإخوان الذين يتذاكرون.

كان النضر لا يصلى إلا الجمعة والأعياد .لا يشاركهم فى الأذكار، ولا هم له إلا جلسات الأصدقاء، وشرب الحشيش والجرى وراء النسوان، و أبوه يوبخه دائماً حين يفيض الكيل ويتهمه بأن ذيله نجس. فكر فى تزويجه فقال لأمه:

– إيه يا حاجة آخرة ابنك أبو ديل نجس ده ؟

– طايش يا شيخ بكرة ربنا يهديه

– إمتـه؟ مش هيبطل جرى ورا نسوان البلد غيـرلما يعمل لنا فضيحة .

– جوزه يا خويا يمكن ينصلح حاله

– وهيه فيه واحدة عاجباه، ده داير ورا كل واحدة شوية

– نجوزه فايزة بنت أخوك، أهى تربيتنا واحنا ضمنينها

كانت فايزة التى تزوجها النضر ممتلئة الجسم بيضاء. واسعة العيون .هادئة الطباع ومع ذلك لم تملأ عيون زوجها الذى ما زال يقيم علاقات مع النساء. ولما يشتد غيظها منه ومن إهماله تشتكى لسلفتها صباح فتواسيها وتصبرها؛ فهو رجلها وليس لها غيره بعد وفاة والديها. فقد ربتها الحاجة .حين تشتكى النضر إليها تقرصها فى خدها وتقول لها:

–إدردحى شوية. إملى عينه يابت .

–أعمل إيه يامه؟ كل يوم استناه وبتمنى كلمة منه وهوه سايبنى .

ـ شوفى حل، خليه يتعلق بيكى علشان يبعد عن العك اللى بيعمله وفضحنا بيه.

كان يعتبرها من مفردات المنزل لا يأتيها إلا قليلاً. دائم الهجر لها.لا يسمع لشكواها، ولم يشفع لها الولدان الجميلان أحمد وزهير

عنده. وحين تذكره بولديه يقول إنهما غلطة مثلها تماما ويتجاهلها ويخرج إلى صحبة دياب.

رب يسر وأعن

كانت صباح تسير خائفة تصحبها جارتها وكاتمة سرها وداد. تسرع إلى بيت الشيخة (رابحة) التى لا يعرف أحد بالتحديد متى جاءت إلى البلدة. لقد استيقظ الجميع يوما فوجدوها بسبحتها الطويلة حول رقبتها والبخور الذى تطلقه .ترددت صباح كثيراً قبل أن تدق الباب. تراجعت للوراء وأرادت الانصراف. وداد طرقت الباب بسرعة. تراجعت صباح ووقفت خلف وداد والخوف يأكل قلبها. جاء صوت الشيخة رابحة حاداً ومخيفاً فتحت الباب وحدقت فى المرأتين بعينيها الضيقتين ونظراتها الحادة. قربت المصباح الذى تحمله فى يدها من وجه صباح المختفية خلف وداد. أدركت بطول خبرتها أن وداد ليست هى المقصودة. قالت بود مصطنع تحاول أن تزيل به اضطراب المرأة:

- خير ياصبايا
- عايزاكى تعملى لى عمل يا ستى الشيخة.
- حاضر يا ختى بس مش لما أعرف بكلم مين ؟
- الاسم مش مهم .المهم العمل علشان أخاوى البنات.

نظرت إليها بعين خبيرة وقالت فى نفسها لا بد أن هذه المرأة زوجة أحد أكابر البلدة.

- قوليلى يا ختى إنت مرات مين؟

وداد تعرف جيداً الرعب الذى يأكل قلب صديقتها قالت لها:

- وإنت ما لك إنت هتصاحبيها

نظرت المرأة ـ التى يشبه وجهها لبؤة تتحفز للهجوم على فريستها ـ إلى وداد نظرة قاسية اسكتتها تماماً، ولكنها حين رأت صباح تصرعلى الكتمان خشيت أن تخسر الجنيه الذى لا بد ستفوز به. طلبت منها (أتر زوجها) فأعطتها شاله .أخرجت جنيها كان ملفوفا بعناية فى منديل صغير ومدفوس فى صدرها.

أوقدت المرأة البخور ونادت على من تصادقهم من الجن وأعطت لصباح صرة صغيرة وهى تقول لها:

- بصى يا ختى، الصوفة دى تلبسيها أول الليل وبعديها تنامى جنب جوزك طاهرة والعقد الكهرمان ده تستحمى عليه الصبح فى طشت .تكبى المية قبل طلوع الشمس فى مفارق أربعة وربنا يسهل.

ثم هزت رأسها وهى تتفحص وجه صباح وأضافت:

ـ ومتنسيش ترجعى العقد بعد سبع تيام ومعاه ديك أحمر بعرف.

ـ يعنى إن شاء الله ربنا هيكرمها ياست الشيخة.

ـ قولى يارب.

- يارب.

قالتها صباح بصوت واهن وأمل حقيقى وصبر كاد أن يخور، بسبب معايرة سلفتها الفريصة

- ياريت ياشيخة رابحة وهيكون لك الحلاوة.

انصرفت المرأتان، وظلهما يرتعش أمامهما فى الضوء الباهت الذى يأتيهما من البيوت، نبح كلب من بعيد .انكمشت صباح فى جسد صديقتها التى تحتضن ذراعها، أحست بنغزة فى القلب. ماذا ستقول لزوجها لقد أخبرته أنها ذاهبة إلى أمها وهى لم تتعود الكذب عليه منذ أن أخذها من بيت أبيها، ولم يكن يتعد عمرها الثانية عشرة ؟ أبوها محفظ القرآن عوّدها الصدق دائما، واليوم تكذب عليه؟ نصحتها وداد أن تتماسك أمامه وألا تبوح له بسرها :

- صباح امسكى نفسك شوية، مش بمجرد ما تبصى فى عينيه تخرى،حاكم أنا عارفاكى - تفتكرى يا وداد هقدر؟

قالتها وهى متأكدة من عدم مقدرتها وهى تضيف :

- هوه لسه أكيد قاعد مع الشيخ بيتكلموا فى أحوال الزرع، فأحسن حل أجرى بسرعة على فوق وأنام قبل ما يطلع، وبكرة يحلها حلال.

- وإيه يعنى انت أجرمتى؟ مش نفسك تجيبى حتت عيل يخاوى الغلابة ؟ ويرحمك من لسان الفريصة اللى عايز قطعه؟ .

ـ ماهو برضو مش قليل إنى أروح حته من غير ما يعرف ويوافق كمان.

ـ خالتى دولت هتحميكى، أكيد نفسها هيه كمان تشوف للغالى ولد .

ـ الحاجة متعرفش.

قالتها وهى ترفع يدها وهما يسيران بجوار البيوت،ثم أضافت بصوت هادئ وحاد:

ـ ده الخوف منها أكتر منه، كذا مرة تيجى سيرة رابحة ودايماً تقول عنها دى نصابة .

حين وصلت كان زوجها جالسا يحادث أباه بشأن الغيط البحرى الذى يحتاج للرى. تسللت صباح دون أن يلحظها أحد إلا عين زوجها الذى أصابه القلق لتأخرها.دخلت على البنات وجدتهن فى سابع نومة .استأذن من والده وصعد إليها.كانت جالسة على طرف السرير تفرك يديها .القلق واضح تماما على وجهها. حاولت الكذب ولكنها حين نظرت فى وجهه الشفيف لم تستطع. أخبرته بأمر الشيخة. عنفها ووبخها هى التى كانت تجلس بين يدى أبيها، تقرأ القرآن ويرتعش قلبها حين يأتى ذكر المنافقين الكاذبين وعقابهم.أخبرها أن البنات والأولاد رزق من عند الله، ثم تركها ونزل. فتح قاعة الشيخ على وجلس يقرأ ورده الليلى، دخل عليه أبوه

وقال له:

– ما لك يا بنى؟

أنهى ورده وقال بحدة لأبيه:

ـ شفت يابا عقل النسوان الفارغ راحت للولية المشعوذة اللى فى آخر البلد.

استمع الرجل إلى كلام ابنه الثائر ومد يده وربت على كتفه وهو يقول:

ـ معلش يابنى، مراتك طيبة وراضية بحالها، ولكن معايرة سلفتها سدت بصيرتها .

ـ سحر يابا ؟

قالها بحدة وهو غير مصدق ثم أضاف وهو يرفع يديه أمام عيون أبيه:

ـ مراتى تروح لدجالين أمال خلت إيه للجهلة؟

هز الرجل رأسه بهدوء وعاد بيده ليربت على كتف ابنه وقال له:

ـ معلش اصبر عليها وعلمها دى اتعرفت على الدنيا بعينيك .

ـ أنا تعبت من قلقها على خلفة الصبيان.

– لما بتخاصمها بتبقى ذليلة ومنكسرة دى غير الفريصة القوية مرات أخوك.

– طب هوه هيعمل إيه دا مبيبطلش ضرب فيها وهى ولا بتتكسر.

ـ مفيش فايدة. وبعدين؟

ـ يابا لا أنا ولا أمي ولا حد بيعايرها بخلفة البنات بتعمل كده ليه؟

– تحية معاها ولدين و بتعايرها وفايزة مخلفة ولدين وهيه نفسها في حتة ولد زي سلايفها واتصرفت على قد ما هداها عقلها، خلص وردك واطلع لها واخزى الشيطان.

صعد إليها .وجدها جالسة على سريرها وعيونها تسح في صمت، وحين رأته ألقت بنفسها في صدره طالبة عفوه فاحتضنها بيديه القويتين، ومسح عن عيونها الحزن، ولما تهيأت له أخبرته بما قالت الشيخة رابحة. ضحك منها وقال في هدوء وحنان:

ـ خد من عبد الله واتكل على الله .

ـ يعني بجد يا عمر ممكن ربنا يدينا ولد ؟

ـ يمكن مفيش حاجة بعيد على ربنا. تعالي يا شيخة سيبك من الكلام ده وتعالي .

وقبل شروق الشمس أخذت ماء اغتسالها وفرقته على مفارق أربعة كما أوصتها الشيخة، وعادت مشرقة الوجه باسمة، دخلت إلى المنزل أعدت الإفطار وبعد خروج الرجال إلى العمل وقفت على باب البيت نادت على وداد، وبدأت تحادثها وتضحك لتغيظ سلفتها تحية التي تعايرها بأنها أنجبت عقد سوّيد كما تقول لها، وأنها لن تنجب

الولد أبداً. وبختها الحاجة لأنها تقف على الباب هى التى تعلم مدى رغبتها فى إغاظة تحية، أمرتها أن تدخل وإلا عرضت نفسها لغضب عمر، وهى لا تقدر على خصامه ولو لساعة، خجلت من كلام الحاجة ودخلت وعيناها تبحثان عنه. لم يحن موعد رجوعه من الحقل .

جنية غاضبة

الابن الرابع والأصغر هو عبد الرحيم الذى وقع قديماً أمام الفرن ويعتقد الجميع أن عمرة الدار(الجنية) تلبسته .تلك التى مضى على وجودها بينهم وقت طويل حتى صارت من مفردات الحياة فى المنزل مثلها مثل قاعة الشيخ(على) وأهل الخطوة الذين يأتون إلى المنزل كل ليلة جمعة .تكون طيبة أحياناً وشريرة بعض الوقت. تقرص أذن من يستهين بها أو يتطاول عليها. تحكى فاطمة دائما أن الجنية تلبست جسد عبد الرحيم حين ضرب قطة سوداء بقدمه؛ فنظرت إليه القطة بعين غاضبة ارتعش لها قلبه فوقع أمام الفرن ومن ساعتها دب الخوف فى قلب الحاجة، وظلت ترقيه وترش الماء مكان سقطته، وتحاول جاهدة استرضاء عمرة الدار حتى تعفو عنه، هو ذاهل معظم الوقت لا يشارك الدار همومها وأفراحها، مكانه المفضل تحت التوتة، وإن رغب فى الخروج. يسيح على قدميه لا يعلم أحد أين يذهب أو من أين يجىء؟ لا يُسأل عن شىء. لا تَلْحظُه عين إلا عيون أمه التى تبحث عنه ساعة الطعام وساعة النوم تهتم به. تطعمه وتنظف له ثيابه

وحين يفيق لبعض الوقت تنصحه بالزواج فينظر إليها ولا يجيب. حاول الشيخ صالح وكل رجال الله الذين لا يخلو منهم المنزل الكبير أن يطردوا الجنية من جسده ولم يفلحوا. هو الحاضر الغائب لا يخطر على بال أحد. لا تخشاه نساء الدار فساعة الخبيز تتخفف كل واحدة من ملابسها أمام نار الفرن وحين يسمعن صوت أحد قادم يسرعن بارتداء ملابسهن، وحين يجدن عبد الرحيم يضحكن ويقلن:

ـ ده الشيخ رحومة متخفوش .

يجلس بجانب أمه التى تعطيه الخبز الساخن بعد حشوه بالقشطة والجلاب. يمسك بالرغيف بكلتا يديه يقضمه سعيداً ويخرج إلى مكانه المفضل أسفل التوتة التى تتوسط الدار. صار الشيخ رحومة منسيا دائما لا يذكره أحد إلا قلب الحاجة التى تنظر إليه أحيانا، وتبكي وتتساءل فى نفسها من سيعتنى به إذا هى توفيت، لما تسمع صوت صباح تنادى على صغارها ليناموا حتى يستيقظوا مبكرين من أجل المدرسة .تطمئن فقد أعدتها لتقوم بدورها فى المنزل، فلن يرعى أحد ابنها إلا صباح حتى فاطمة ابنتها لم تفكر يوما فى أن توصيها بالعناية بالشيخ رحومة .

عقد سوِّيد

كان عنتر يعيشُ مع زوجته تحية فى حجرتين من حجرات الدور

العلوى، ولكن الفريصة زوجته لم تستطع أن تعيش فى كنف الحاجة رغم إنها ابنة أختها الكبرى: و الأولى بها أن تصير جزءاً من عالمها، وأن تنال حبها بدلاً من صَباح، لكن عصبيتها الزائدة ومزاجها الحاد جعلاها لا تتحمّل طريقة الحاجة فى تصريف أمور المنزل، وربما الحاج محمد الجنى الذى ركبها وهى بعد صغيرة جعلها ترفض كل ما تراه أمراً من أحد .دائمة الاعتراض والاحتجاج، وهذا يخالف طبيعة الحياة فى عائلة الشيخ صالح، فلا صوت يعلو، ولا شتائم تُقال. لا يُوجد إلا الحب الذى يغلف القلوب.

كانت الغيرة تأكل قلبها من بكرية الحاجة زوجة عمر. الحاجة تحبها وتثق فيها بشدة فى تصريف كل أمر.هى المسئولة عن حجرة الخزين. تعرف ما بها، وما يخرج للأخوان فى الليالى العامرة.

كانت الحاجة مع صباح فى حجرة الخزين تشرف على ختم زلع السمن والجبن. حينً دخلت سلوى مسرعة، وأخبرتهما بما حدث للفريصة :

- مرات عمى تحية كبت اللبن كله، رفستها البقرة فى وشها .

- الخضرة فى إيديها يابسة. هكذا علقت الحاجة.

ابتسمت صباح راضية. رغم طيبتها إلا أن غيرتها من سلفتها دائمة ومستمرة ودون أن تدرى تشمت فيها .قالت فى خبث :

- ليه بس يا حاجة حرام. ده ابنك بيعجنها، أنا مش عارفة

بتجيب القوة دى منين ؟

حين تسمع صباح عنتر يضربها تفرح .تتسمع للمشاجرة الدائرة، بعدها تشعر بالذنب وتوبخ نفسها لأنها تتسمع لسلفتها وتفرح فيها .

خرجت الحاجة من حجرة الخزين على صوت عنتر يوبخ تحية على سوء تصرفها، وهى غاضبة، وازدادت ثورتها حين لمحت ظل ابتسامة على وجه صباح التى كانت تقف خلف الحاجة، وتمسك بالقربة، وتجهزها(للخَضِّ)حين انتهت من خض القربة أمسكت الحاجة الزبد بيديها الخبيرتين .نظرت إلى تحية التى كانت ما تزال جالسة على عتبة السلم وقالت:

– الحكاية كلها بركة.

اغتاظت تحية ورمتها بنظرة غاضبة وقالت:

– أنت دايماً كده، صباح إيديها مبروكة، صباح بتعمل كل حاجة كويسة، ابقى خليها تعملك كل حاجة؟

ضحك الجميع، ومال الشيخ صالح على أذن الحاجة، وأمرها ألا تغيظ ابنة أختها أكثر من ذلك:

– يا حاجة كفاية إحنا مش ناقصين صوتها عالى وبتفضحنا .

– أصلها وشها ناشف.

– يا مه مش عايزين وجع دماغ ماتخليهاش تحلب ولا تخض.

التفتت الأم إلى ابنها وقالت له:

- أنا قلت حاجة يابني؟ هيه دايما كده عصبية وغلاطة وبعدين متعملشي حاجة إزاى ؟ يعني تقعد هانم وإحنا نخدمها ؟

غضبت تحية وهاجت ودخلت حجرتها بعد أن قالت :

- كأني مش بنت أختك. الله يرحمك يامه سبتيني للغلب .

جلست بمفردها .لا تقدر على كتم انفعالها، ولا تحب أن يراها أحد تبكي. فالبكاء ضعف وهي ليست ضعيفة. دخل عليها زوجها، أخفت دموعها وتماسكت، وأخبرته برغبتها في الاستقلال عن العائلة، فهي ترغب في عيشة منفصلة لها وحدها.

أمام هذه المشاكل لم يجد زوجها إلا البعد، فاشترى منزلاً صغيراً مقابلاً للمنزل الكبير حين .سمع الشيخ بما فعل ابنه. حزن كثيراً، وقال للحاجة أنه يخشى انفراط العقد وهذه قد تكون البداية قالت الحاجة، وهي تربت بيديها على فخذه بحب، وتطمئنه:

- متزعلش ياخويا كده أحسن.

ثم نظرت إلى عينيه وهي ترفع يديها عن حجرها و تضيف:

- يمكن مراته سرها يهدى شوية

- الناس تاكل وشنا. وبعدين الخيردايما في الجماعة.

- تحية صحيح بنت أختي، بس طبعها حامي ومش قادرة تعيش بطريقتنا .أهي صباح وفايزة زي الاخوات.

– ابنك مش قادرعليها.

قالها وهو يلم المسبحة فى يديه ويشير بها فى الهواء بنفاد صبر.

ـ ده بيضربها ضرب مايتحملوش حمار.هى اللى راكبهاعفريت.

– الحاج محمد عمره ما طاوعها فى الشر ودايماً بيكسر مناخيرها، ولما بيغضب عليها بيهد قواها.

تدخل النضر الذى كان شارداً فى ترتيب سهرة الليلة مع دياب وقال:

– أنتوا مش فاهمين حاجة .عنتر مستخسصر كده وشقاه فى أرض العمدة .عايز يعمل عيشة لوحده علشان يحوش، ويشترى أرض ويبقى من أصحاب الطين.

– طين لما يطينك .

ثم رفع يديه مشرعة الأصابع فى الهواء وهو يشير بحدة لابنه ويضيف:

ـ هو بيصرف علينا؟ ما كلنا بنكد ونعرق زيه وأكتر،هو فيه حد نايم؟ كلنا من الصبح لغاية الليل وإحنا مهدود قوانا .

– هوه مش عاجبه التكية المفتوحة من كدنا للإخوان.

ثم تجنب نظرة أبيه الحادة، وأضاف بصوت ضعيف وكأنه يحدث نفسه

- وده حقه.

ما إن نطقها حتى كاد الحاج أن يقف، ولكن يد الحاجة التى أمسكت به .جعلته يعيد جسده الذى كان فى الطريق للقيام فقال بحدة وهو يُشير له:

– كسر حقك. أمش قوم من قدامى وخليه يعمل اللى يعجبه. وبعدين فين كدك ده اللى بياخدوه الإخوان ؟ ما أنت طول النهار بتلف مع دياب لا شغلة ولا مشغلة والحمل كله على عمر اللى انقسم ضهره .انت حد بيشوفك طول النهار بترمح فى الفاضية، وأخوان إيه اللى واخدين كدكم ؟ ده كل اللى انتوا فيه من بركتهم .

وافق الشيخ على انتقال ابنه البكر،وهو مرعوب أن تكون هذه بداية انفلات حبات العقد الذى حرص على لضمه طوال السنين؛ فهو يحرص كل الحرص على أن يظل أبناؤه تحت سقف واحد جيل وراء جيل، حتى يظلوا متماسكين، ويصيروا قوة فى وجه الريح. عنتر دائما يدخرما يعمل به فى دوار العمدة، ولا يساهم فى المنزل إلا بالقليل، والكل يعلم ذلك،والشيخ يبارك فعله، ويقول للحاجة التى تعترض على المشاركة القليلة التى يقدمها :

- سيبيه يا حاجة ده صاحب عيال ربنا يبارك له.

رغم انفصال تحية عن معيشتهم ظل التنافس بين السلفتين على أشده؛ فكانت تحية تعاير صباح بخلفة البنات، فتبكى صباح

بالليل لزوجها الذى يطيّب خاطرها ويقـول:

– ولا يهمك بكرة بناتك يتعلموا ويبقوا أحسن من ميت راجل

–وأنت حتكملهـم تعليمهـم منين والحالة أنت عارفها كويس ؟

- لو بعت الجلبية هـعلّم البنات

- ربنا يخليك ليهم ويخلى جدهم.

–وبعدين أنت ممكن تغيظيها، قوليلها على الأقل جوزى بيحبنى مش كارهنى وكاره عمايلى زيك .

تبتسم المرأة ابتسامة راضية وتدفن جسدها فى حضنه وفى الصباح تحرص على كب ماء الاستحمام فى الشارع وترفع صوتها وهى تحادث صديقتها وداد التى تقول لها مازحة :

– واضح إن ليلتك كانت رطبة

–على الآخر يا بت.

تسمع تحية الكلام وهى تمسك بالحطب من فوق سطح دارها وتغتاظ منهما، فلا تجد أمامها إلا أن تقول وهى ترفع أحد أعود الحطب عاليا:

- يا خسارتك يا ميه فى دمع الولايا.

درب ضيق

كان الشيخ محبا لسير الأبطال والفرسان. عشق الشعر وحفظه.

لم يكن يظهر حبه للشعر إلا بصحبة عبد الموجود ابن خالته ورفيق طفولته، فرغم أنه لا يعرف القراءة ولا يحب جلسات الإخوان إلا أنه يحفظ كل حكايات الأبطال والسير الشعبية. كان يستطيع وبتلقائية شديدة أن يرتجل أبياتا شعرية ويحرص دائما على مباراة ومنافسة الشيخ صالح فى ارتجال الأدوار فهو يبدأ الدور وينتظر أن يرد عليه الشيخ بدور مماثل على نفس الوزن والقافية ويحمل نفس المعانى على أن يضيف معنى جديدا.

حين أطل الشيخ من الدرب الضيق حيث يسكن عبد الموجود هلل وقال:

- يا أهلا بالحبايب.

سار متئدا ومبتسما على ترحيب ابن خالته. جلس بجانبه بعد أن أزاح جردل الماء، ولفة الليف التى يفتلها، ثم أخذه فى حضنه، وهو يضيف:

- أخبار ضيوفك إيه مش كان أحسن أجى أسمعهم بيتين لابن شداد بدل من الكلام بتاعكم ده عن أهل الخطوة؟

– بلاش تتطاول على أهل الله وإلا قلبوك حمار أذعر من غير ديل.

– يا عم صلى ع اللى هيشفع فيك يوم الدين، فيه أحسن من سيرة الهلالى والزير سالم، مش تقولى ناس بتمشى ع المية وتنطوى

ليهم الأرض .

-اخشع يا عبد الموجود واعملك راجع انامش جاى اسمع كلامك الفاضى ده

- إزى دولت بنت خالتى.تلاقيك واجع قلبها بخدمة ضيوفك اللى مابيخلصوش ؟

– الحاجة بتحب خدمة أهل الله .أناعايزك تسهرمعاى قدام المية، هنروى الغيط القبلى.

– يا سلام دى هتبقى سهرة حلوة بس خلّى عمر ييجى معانا وبلاش عنتر أحسن أنا بحب قعدة عمر

– عنتر مش فاضى بايت عند أرض العمدة. وأنا عارف إنك بتحب كلام عمر ما هو دايما بيقف جنبك ويناصرك فى الكلام .

- هنروح امته ؟

- بعد صلاة العشا نصليها سوا فى الجامع ونتوكل على الله .

انصرف الشيخ بعد أن اتفق مع ابن خالته على أن يذهب معه بعد صلاة العشاء، أعدت لهم فاطمة الطعام وأعطته لعمر. ربطه فى النبوت ووضعه على كتفيه وألقى بذراعيه عليه وانصرف، استوقفته فاطمة وأوصته بألا يترك أباه بجانب الساقية بمفرده خوفا عليه من (أم بزاز) التى تطلع لمن يجلس منفردا، ضحكت الحاجة وقالت:

– يعنى هتخاف من الاتنين؟

– أيوه. بسم الله الرحمن الرحيم ميطلعوش لأكثر من واحد.

–ع العموم مش ممكن يطلعوا للشيخ وإلا حرقهم ببركة الأولياء.

ـ برضه احلف يا عمر إنك مش هتسيب أبوك لوحده.

ـ يا ستى حاضر والله مش هسيبه لوحده معانا خالك جود .

ـ خالى جود معاكم يا ريتنى كنت معاكم.

ـ تكونى فين يا بت، تروحى معانا الغيط يعنى ؟

ـ مش قصدى بس بحب قعدة خالى جود قوى .

ـ المهم حطيتى أكل بالزيادة ولا لأ ؟

ـ حطيت يا خويا يكفى عشر رجالة .

ـ انتى بتقولى فيها السهر وخالك جود وضيوف أبوكى اللى بيطلعوا متعرفيش منين يهلكوا أكل عشر رجالة .

انصرف عمر بعد أن تأكد من كمية الطعام والشاى التى وضعتها فاطمة وهناك بجانب الساقية جلس عبد الموجود بجانب الشيخ يحكى له عن كيفية مقتل عنترة بن شداد على يد أعدائه وعلى ضوء الراكية المشتعلة كانت تلمع عيناه، وهو يصف مدى قوة عنترة حتى أن صوت تبوله كان يسمع من مسافة ميل وفى غمرة انفعاله نسى أن الشيخ هو الذى قرأ له هذه الحكايات جميعها من الكتب التى كان يحرص على شرائها من أمام الأزهر حين كان طالبا فيه، ضحك الشيخ وتذكر كيف كان يشحن صوته بكل الانفعالات

المناسبة للمواقف، حين كان يقرأ لابن خالته ورفيق صباه شعرالهلالى أو المهلهل بن أبى ربيعة، وحين يغضب الشيخ الكبير، كانا يخبئان هذه الكتب خوفا منه هو الذى كان يعنف ابنه على تركه لتاريخ الصوفية ورجال الله وقراءة مثل هذه الحكايات التى لا طائل منها .

لما أصبح صالح مسئولا عن الطريقة بعد وفاة والده. صارت هذه الكتب ترقد فى صندوق الكنوز الخشبى فى قاعة الشيخ (على) جنبا إلى جنب مع طبقات الشعرانى ودلائل الخيرات ولطائف المنن وبردة البوصيرى.

فى الليالى المقمرة حين يفرغ الإخوان من أذكارهم كان عمر يخرج كتب السيرة ويقرأ للإخوان الحكايات والأشعار التى تطربهم.

طرب وهو يستمع إلى صديق طفولته ومنافسه فى حب الحاجة دولت حين كانوا صغارا. بدأ ينقر بأصابعه على خشب الساقية بعد أن أوقفها عمر وفك الحمار ليستريح قليلا. علا صوته عذبا رائقا فى هدوء الليل وهو يسمعه شعر الهلالى وهو يخاطب الجازية. بعد أن فرغ من شعره بادره الشيخ بدور وطلب منه الرد عليه.

بلن بلا لن بلا لين

وطبت يا دحى البلالين

وبقيت دوا للجرايح

انتظر رد عبد الموجود، توقع أن يأتى سريعا كالعادة، ولكن رده تأخر،نظرعمر إلى عمه وشعر بألم هزيمته الدائمة أمام الشيخ وقرر أن ينقذه فقال عمر:

بلن بلا لن بلا لين

وطبت يا دحى البلالين

و طابت عليك الجرايح

طرب عبد الموجود وصفق، لسرعة عمر فى الرد، ورأى أن الجرايح حين تطيب على دحى البلالين أقوى من أن يكون مجرد دواء لها.

اغتاظ من عمر الذى أنقذ عبد الموجود وفوّت عليه الإحساس بالنصر، أمره فى لهجة قاسية أن يدخل إلى الذرة حتى يفتح السدود للمياه لتغمر باقى الحقل. ابتسم عمر راضياً فقد أنقذ خاله لمرة وحيدة من الإحساس بالهزيمة و قام إلى الحمار الذى استراح قليلا وربطه إلى الساقية وضربه على ظهره حتى يلف، واصل الأب تعنيفه لابنه حين لمح الابتسامة على وجهه. ضحك عمر من رغبة أبيه الملحة والدائمة فى هزيمة صديقه وابن خالته تركهما فى جدالهما وانصرف وهو يفكر فى حال أبيه الذى يجمع بين زهد الصوفى، وصلابة الفلاح الذى يكد ويفلح أرضه، ومتعته الحقيقية فى خدمة رجال الطريق فدائما يردد سيد القوم خادمهم، النهار يكد ويكدح وبالليل

يكون سراج الليالى المضيئة بالمحبة الإلهية.

ابتسم وهو يسمع عبد الموجود يجادل الشيخ فى بيت شعر ينسبه إلى امرئ القيس والشيخ يصر على أن قائله هو طرفة بن العبد.

تعجب عمر من الطفولة المشاغبة التى تكمن فى قلب الشيخ الورع والتى لا تظهر إلا حين يكون بصحبة ابن خالته.

راكية النار

كانت الأيام تمضى سريعة، وعنتر يبحث عن آماله التى نسجها فى الحجرة العلوية للبيت الكبير الذى تركه بناءً على شورة المرأة. كان قد ترك العمل عند العمدة لسنة وبضعة شهور،عمل خولى أنفار فى البدرمان، وبعد مداولات كثيرة بينه وبين أتباع العمدة الذى لم يجد خولى أنفار بنفس درجة أمانته، عاد وبدأ البحث عن أحلامه فى امتلاك أرض بعد أن وضع شروطاً لعودته .ولكن الأيام تمضى سريعا وها هو يبحث فى صندوق مدخراته عن بداية صحيحة لتلك الأحلام فلا يجد إلا بضعة جنيهات لا تسمن ولا تغنى عن قيراطين. أغلق الصندوق على نهاية غير مشجعة، ونادى على امرأته وسألها عن مدخرات السنوات الخمس، ولسوء حظها كان الحاج محمد الجنى يجسم على صدرها مما جعلها تحتد على زوجها وتغضبه، فضربها عنتر، بعد أن اتهمها بأنها كانت السبب فى بعده عن أمه

وأبيه والمنزل الكبير ببركته التى لا حدود لهـا .

سمعت صبـاح ضرب عنتر لها وصراخها، فدفعت الباب ودخلت لتفصل بينهما. نظرت إليها والشرر يتطاير من عينيها .. اعتقدت أنها جاءت شامتة، أمسكت براكية النار المشتعلة وقذفتها بها، ولولا أن صبـاح فى اللحظة الأخيرة قفزت بعيداً عن اتجاه الراكية لأحرقتها تماماً. انصرفت صبـاح وازداد غضبه .. ظل يضربها حتى خارت قواها، ووقعت على الأرض، ولما أفـاقت بكت طويلاً، وانكبت على قدميه تقبلهما حتى لا يخرج غاضباً ليس حرصاً على رضاه بل حتى لا تشمت فيها صباح بالطبع.

كان جالساً فى شمس الضحى مسنداً ظهره للجدار يفكر فى حاله. الضيق والهم يجثمان على صدره منذ ابتعاده عن أبيه، وعن بركته . تشاجر اليوم مع العمدة على أسباب تافهة، وهو يحاسبه على أجرة الأنفار. صار يثور لأقل شىء غضب .أخبره أنه سيترك العمل لديه مرة أخرى. ظل الرجل يسترضيه مرات عديدة ؛ فهو لن يجد ملاحظاً للأنفار فى أمانته وورعه، يعامل النضر مثل أى نفر غريب، رآه مراراً يعنفه لأنه جلس قليلا يستريح تحت الصفصافة، ولم ير العمدة الذى كان مارا ليطمئن على الحصاد، أدرك أنه لن يجد ملاحظا للأنفار فى أمانته ولكنه هذه الأيام أصبح ضيق الصدر يثور لأقل شىء.

بدأ يترك أحلامه التى صارت عبئا عليه. هل ابتعد بالفعل عن المنزل الكبير ليفض حالة النزاع المستمر بين زوجته وأمه وباقى النساء كما كان يقول ليضحك على نفسه ؟، أم لاعتراضه الدائم على استضافة الشيخ للإخوان؟ وماذا يهم فى أمر الإخوان؟ فهم يأتون برزقهم .كل ما ينفق عليهم لو حسب بحساباته الدنيوية فلن تنفع الأفدنة القليلة التى يملكها الشيخ للإنفاق عليهم .لا بد أن فى المسألة حسابات أخرى لا يدركها عقله، وهو غارق فى تفكيره اقتربت منه صباح على استحياء، وجلست بجانبه وقالت له:

– شايف يا أبو محمد عمايل مراتك؟

– معلش يا مرات أخويا أنا عارف لسانها اللى زى المبرد بس أعمل فيها إيه؟

– بس ده ميصحش الناس بدأت كل يوم تسمع صوتنا. وده بيمقت الحاجة والشيخ .

– طب أعمل إيه لولا العيال ماكنتش خليتها.

–أنا يا خويا بيفيض بيّا ولولا خايفة عليكم كنت قلت لعمر على كل اللى بتعمله .

– إنتِ عاقلة وبنت حلال حقك عليا أنا.

انصرفت صباح راضية تماماً .هى تحترمه وتحرص على ألا يغضب زوجها من أخيه، تكتفى بكلامه الذى يطيب خاطرها. تركته

يعيد حساباته ودخلت إلى الدار بعد أن قررت أن تتجنب المشاكل التى تثيرها تحية إكراماً لخاطره .

من قال إنها قوية، الكل يعتقد فيها القوة، كثيراً ما تمنت أن تكون مثل صباح. الحاجة تؤثرها بثقتها دون كل النساء، حتى ابنتها فاطمة لا تنال تلك الثقة، من لها بثقة الحاجة وتترك كل شىء من أجلها حتى المنزل الذى حرصت على أن يكون لها وحدها ؟ ماذا أفادت من منزل حيطانه متهالكة وزوج يحاسبها على كل صغيرة وكبيرة وأبناء حرموا من حنية جدهم ساعة العشاء ؟ كثيراً ما تمنت أن تبكى لخالتها وتشتكى لها ما يفعله فيها عنتر، تعرف أنه ليس بخيلا، ولكنه يعود متعبا وقلقاً على الأمنيات التى ترك أباه من أجلها، ولم يحققها حتى الآن، ومن أجل ذلك يضع كل همه فيها، يضربها كثيراً، ولا يعطيها فرصة حتى لمناقشته، يرتمى من التعب ولا يستمع لكل الحكايات الكثيرة التى تحكيها له، يصلى العشاء بالكاد، لا هم له إلا العمل، لم يجلس معها يوما يسمع لها، كل ما يدور بينهما عن الزرع والبهائم حتى فى لحظاتهم الخاصة ينتهى منها ويتركها سريعاً كأنه يؤدى عملا كُلف به. لم يلمسها يوما بحنان، لم يضحك معها، دائما يرسم على وجهه العبوس .كأنه يخشى الابتسام، حتى أولاده لا يشعرهم بعطفه، عمر أحن عليهم منه، لما طلب منه عمر أن يُقدم لهم فى المدرسة قال له :

- مدرسة إيه يا عمر إحنا قد مصاريف المدارس ؟ سيب العلم لأهله اللى يقدروا عليه .

كثيرا ما حسدت صباح على حنية عمر، وعطفه عليها وعلى بناتها، ظلت سنوات تدبر وتوفر وتحرم أبناءها من كل شىء حتى تثبت للكل أنها كانت محقة حين طالبت بفصل معيشتها عنهم، ولكن الأيام تمر ولا شىء يطرأ عليهم، كل ما استطاعوا توفيره بضعة قراريط فى الحوض الشرقى وهى أرض بعيدة وقليلة العطاء كما سمعت قبلا من زوج خالتها الذى تمنت كثيراً أن تنال حبه . فشلت فى ذلك رغم أنه يقف لعنتر كثيراً ويمنعه من ضربها .

منديل فاطمة

كانت سلوى تتوق دائما إلى دفن جسمها فى حضن جدتها الدافئ. تعشق جسد الحاجة البض الذى تفوح منه دائما رائحة الزبد واللبن الرايب مختلطة برائحة صابونها المسك وعطرها الجميل ... ترى متعتها الكبرى فى أن تسمح لها الحاجة بدعك ظهرها ساعة استحمامها. تفرح حين تدب الكوز فى حلة الماء الساخن .تدلقه على ظهر جدتها، فينزل الماء دون أن يبتل ظهر الحاجة وكأنها دهنته بالسمن. كانت تضحك وتقول لها:

– ستى الميه مابتبلش جسمك خالص.

ومن خلال الصابون الذى يغطى وجه الحاجة تقول لها:

ـ العجل فى بطن أمه.

تضحك الصغيرة وتكب آخر كوز على رأس الحاجة وتستدير لتحضر لها البشكير القطنى الأبيض. تبعد وجهها عن الجسد البض حين تقوم لتتناول البشكير حتى لا ترى عورة جدتها، تقرب القبقاب الخشب من قدميها وهى مغمضة لعيونها وتجلس فى انتظار أن تكمل ارتداء ملابسها.تتشمم رائحة الصابون المعطر الذى لا يشبه الصابون الذى يدخل فى عيونها وأمها تدعك لها ظهرها، وتقول للجدة :

ـ الله يا ستى ريحتك حلوة قوى زى المسك.

ـ تعالى يا ست البنات أحطلك ريحة حلوة زيّك .

تمسك الحاجة بزجاجة من العطر تكب قدراً منها وتدعك للصغيرة خدودها وتحتضنها بعد أن تأخذ نفساً عميقا من رقبتها ووجهها وتقول لها :

ـ الله شفتى ريحتك أحلى إزاى زى العنبر .

كل ليلة تحاول صباح أن تأخذ الصغيرة معها لتنام وسط أخواتها فى الدور العلوى، ولكنها تبكى وتدبدب بأقدامها فى الأرض ولا تسكت إلا حين تخلصها الحاجة من بين يدى أمها وتخبئها وراءها وتقول إنها ستنام معها. لا تجد صباح حلاً إلا أن تستسلم.

تلوم الحاجة على إفسادها للصغيرة بهذا التدليل، حين تستسلم تتقافز الصغيرة خلف ظهر جدتها وتهتف بحبها وتسرع إلى سريرها المفروش دائما بملاءات مليئة بالورود والعصافير. تندس تحت لحافها الحريرى وتنتظر مكافأة كل ليلة قطعة السكر النبات التى تخرجها الحاجة من الصندوق الخشبى الذى مجرد رؤيته يفتح أمام الصغيرة يمثل كل الفرح، فمنه تخرج الحلوى والفاكهة والسكر النبات ومنه تشم رائحة المسك والبخور الذى تطلقه كل مساء ،وتطوف به حجرات البيت الكبير على اتساعها تنام الصغيرة فى حضنها وحين تغرق فى النوم تحاول الحاجة أن تنقلب على جنبها الآخر وتسحب ذراعيها، فتصحو على صوت ينادى على جدتها:

- يا دولت قومى الفجر قرب حمتلك المترد قومى صلى واحلبى البهايم.

ترتجف الصغيرة . تسأل عن صاحبة الصوت، تقول لها الحاجة أن هذا هو صوت عمتها فاطمة فى الحجرة المجاورة. تقوم لتتوضأ وتعود سلوى للنوم مطمئنة إلى أن الصوت الذى تسمعه هو صوت عمتها. حين تستيقظ تصعد إلى سطح المنزل، تجد فاطمة جالسة على المصطبة الطينية العالية فوق السطح تمشط شعرها الذهبى الطويل، والذى يفرش المصطبة خلفها. تقف من بعيد تتأملها وحين تشعر بها فاطمة تبتسم فى صفاء وتنادى عليها. تقترب سلوى وتلح

على عمتها أن تدعها تمشط شعرها، ترفض فاطمة فى دلال،وحين تغضب الصغيرة، توافق بشرط ألا تشده بعنف كما المرات الفائتة.تزقطط، وتمسك بالمشط العاج الذى يلمع فى ضوء الشمس تقول لها:

-عمتى أبويا جابلك المشط ده من قدام الحسين؟.

-أيوه، عاجبك خديه.

-لأ. أنا هقول له يجيب لى واحد زيه فى المولد الجاى، ثم تمسك خصلة من الشعر وتمر بالمشط عليها وهى تسألها.إنت ليه يا عمتى مبتروحيش معانا المولد؟

– عشان عيب أروح وأنا بنت بنوت.

– طب ما أنا بنت.

- بس أنت صغيرة لما تكبرى أكيد هيمنعوكى من حاجات كتير.

– طب أنا مش عايزه أكبر. وبعدين همه مش هيقدروا يمنعونى علشان أنا هروح المدرسة اللى فى المركز.

– أنا منعونى من السوق ومرواح مصر والمدرسة.

– يا عينى يا عمتى. بس أنت شعرك زى الدهب نفسى شعرى يكون حلو زيك كده.

– أنت كلك حلوة والغمازتين اللى فى خدك زى السكر.

– عمتى أنت اللى بتنادى على ستى وتصحيها بالليل؟

-لأ دى عمرة الدار.

ولما تلمح فاطمة الخوف فى وجه الصغيرة، تضحك وتقول أنها هى التى تنادى عليها فترد سلوى فى حيرة :

- إزاى يا عمتى بتقوليلها دولت كده من غير يامه ؟

- وإيه يعنى بدلعها مش أمى ؟

- لا يا عمتى دى ستى، كل الناس بتقولها يا حاجة .

- كل الناس مش أنا، أنا حرة فى أمى .

- إذا كان حتى جدى الشيخ بيقولها ساعات كتير يا حاجة .

فى الليل حين تدخل فى حضن جدتها تحت اللحاف تقسم عليها بالشيخ (علىّ) أن تقول لها الحقيقة ولكن الحاجة تبتسم من فضولها، وتتهرب من الرد و وبعد إلحاح تخبرها أن عمرة الدار هى التى تنادى فتنكمش بجسدها الصغير فى لحم الحاجة البض الذى تفوح منه رائحة الزبد وتنام .

كل يوم بعد أن تغيب الشمس تحضر فاطمة جرتها الفخارية. تدعكها بالليفة الخشنة، حتى تصير حمراء خالص وتبخرها، وتنتظر صديقاتها ليذهبن إلى النهر فى ضوء القمر، حتى يملأن الجرار ويغمسن أقدامهن فيه ويجلسن كل واحدة تحكى عن أحلامها ثم يعدن ليخلطن ماء النهر بالماورد ويغطين الجرار بالمناديل المعطرة المزهرة. لم يكن يحلو لكل من فى البيت إلا الشرب من جرة فاطمة.

فى هذا المساء جاءت فاطمة خائفة ومرتعشة دون أن تملأ جرتها ولما سألتها الحاجة عن ذلك قالت:

– عارفة شجرة الكافور العالية اللى على الجسر؟

– ما لها ؟ إيه فيها ؟؟

- شفنا مندبة حامية ونسوان لابسة إسود .

- بالليل يا ساتر يا رب مين اللى مات ؟ ومندبة إيه اللى على الجسر؟ هوه غريب عن البلد ولا إيه ؟

- فى ضى القمر لمحت واحدة فى نص المندبة بتشلشل بشاش أسود بين ذراعيها وتعدد

– ودول مين دول؟

– أول ما شافونا قالت اللى فى نص المندبة (ياطالعة فى القمرة يا أم الجريرة الحمرة قولى لأميرة الأمرا خيك حديدر مات.)

لم تكمل فاطمة جملتها، حتى سمع جميع سكان المنزل الكبير - وقد يكون سمعه من يقف على بعد شارعين منه - صراخا وظل امرأة يخطف المنديل الموضوع على جرتها الفارغة ويسرع خارجا من الدار. فزع الصغار، ووقف شعر الكبار، فبسملت الحاجة وحوقلت وطافت ببخورها على رءوسهم جميعا تمرر يدها على رءوسهم وتقرأ فى سرها. والشيخ صالح جالس دون تعليق، بعد أن فرغت من طقوسها ضمت الصغيرة سلوى إلى حضنها وأخبرتهم

جميعا أن هذه عمرة الدار التى تحرص الحاجة على وضع كوب أعلى الغطاء الخشبى للزير، لتشرب به هى وساكنو الأرض السفليون.

بعد مضى أيام ثلاثة استيقظوا على رؤية منديل فاطمة مفروشا على الفرن وفوقه مجموعة من الكعك المرشوش على وجهه السكر والسمسم. تحير الجميع إلا الحاجة دولت التى كانت تعد الإفطار وترمقهم باسمة. قسمت عليهم الكعك فرفضوا جميعا أكله، ولم يتشجع واحد منهم إلا بعد أن أمسكت بكعكة، وقرأت اسم الله عليها وقضمتها بأسنانها البيضاء التى لم تنقص ولو سنة وحيدة رغم سنوات عمرها الكثيرة. وزعت عليهم قطع الكعك وجلست تحدثهم عن أهمية احترام هؤلاء السفليين وعدم التعرض لهم فهم يعيشون بينهم ولهم خصوصياتهم.

كيزان الذرة

كان دياب صديق النضر وصاحب جلسات الحشيش جالسا بجوار السبيل فى الحوض الغربى. ضحك طويلا وهو يصف للنضر كيف أنه زنق البنت راوية وسط عيدان الذرة الطويلة فى عز القيالة.

يا بنى قاعد مولع سيجارة وبفكر فى اللى حصل مع أمى والتنغيص اللى شغال ليل ونهار على القيراطين اللى فى الطُوَال،

قلتلها نبيعهم وأتجوز بيهم، عديك ساعة يا بنى وهية تندب وتقول .

- تبيع إيه يا بنى إنت اتجننت دى أرض عفيه وخسارة تتباع .

- يا عم الغيط بعيد، ده قرب الترب فى آخر البلد،وعلشان الواحد يرويهم ولا يعزقهم شغلانة.

- يا بنى حرام والله ده قرن الفول لما رحت معاك فى قُصَال الفول اللى فات ما شاء الله بقرنين من أرضنا هنا.

- المهم سيبك ما هى الحاجة فردوس مصممة على الرفض، هُبّ وسمعت خروشة فى الدرة، دخلت لقيت البت بتكسر فى كيزان الدرة، رميتها يا بنى على الأرض بركت عليها وهى بتفرفط ومقمتش من عليها غير لما حسيت إن عيدان الدرة ولّعت ضهرى .

ضحك النضر وساوى قطعة الحشيش التى حرص على تفتيتها وخلطها بالدخان ثم بلل ورقة البفرة بشفتيه التى سال عليها ريقه، وهو يسمع كلام دياب الذى استرسل فى الحديث.

– والبنت بنت اللبوة لما قمت من عليها بصتلى من غير ولا كلمة وكسرت نص شوال درة وشالته وسابتنى ومشيت.

أشعل السيجارة ثم نظر إلى صديق عمره دياب وقال :

- أنا من زمان مقفشتش البت راوية. تصدق أنا نفسى أزنقها دلوقتى.

ثم أخذ نفساً من السيجارة، ونظر إلى الفضاء الواسع .ظهرت

عيونه رائقة وهو يضيف :

ـ وأنا أديها كل عيدان الذرة اللى الشيخ صالح زارعهم .

ثم مد يديه بالسيجارة وهو يضيف

ـ بس أكيد عمك الشيخ صالح هيحزن كتير على ضياعها.

ثم ضحك وهو يتحسس ما بين فخذيه وقال :

ـ بس مش خسارة فى راوية.

أخذ دياب السيجارة وامتص دخانها باستمتاع وتاه فى الفراغ، ثم حرك يده الفارغة من السيجارة وتحسس ما بين فخذيه أمام النضر الذى ما يزال يشعر ببقايا رغبة جامحة فى الاختلاء الآن براوية. أمسك من يده السيجارة وسحب نفسا عميقا أتبعه بإخراج الدخان من أنفه بسرعة، ثم ببطء من فمه، وهو يفكر فى حال الشيخ صالح الذى يطعم شقى السنة كلها للإخوان ثم قال:

– والله راوية أحق بكل كيزان الدرة من الصيع اللى لاممهم عمك الشيخ صالح.

– آه والله، عمر والشيخ بيضيعوا عمرهم وشقاهم على الشيوخ والمريدين.

كان النضر ما زال مستمرا فى السخرية من أبيه وأخيه وأقطاب الله الذين ينيرون الدنيا بنورهم الربانى،هؤلاء السالكون لطريق الله. أقبل أبوه راكبا حماره الأبيض القوى، ويجرخلفه الجاموستين

والبقرة، ترك دياب ساندا ظهره للسبيل وأسرع إلى داخل غيط الذرة، ليختفى منه حتى لا يوبخه حين يراهما سويا، فهو دائم الاعتراض على صحبته، ويصفه بأنه شقى الحال غضب عليه الرب والعبد. حين أفاق دياب لم يجد النضر بجانبه .كانت السيجارة قوية لدرجة أنه لم يشعر بصاحبه،وهو يسرع لداخل الغيط. ووجد الشيخ واقفا أمامه راكبا حماره ينظر مشفقا عليه، فهو ابن شيخ جليل وصاحب فى الليالى المضيئة بشموس المعارف والأقطاب. حين انتبه لوقوف الشيخ أسرع إليه أمسك بيده التى يقبض بها على مقود الحمار،وقبلها وطلب منه البركة والدعاء، ولم يكن كاذبا فى هذه الرغبة فهو يتمنى أن يرضى عنه الشيخ ويزوجه من ابنته فاطمة التى طالما لمحها، وهى تدخل مسرعة حين تنادى على النضر بأن يأخذ صينية الشاى عندما يكون فى زيارته. وهو يقبل يد الشيخ صالح كانت صورة فاطمة وضفائرها الطويلة وعيونها العسلية الواسعة تحتل مساحة كبيرة فى ذاكرته. سحب الشيخ يده التى مازال دياب قابضاً عليها و دعا له أن يهديه الله إلى طريقه وأن يبعده عن طريق الشر الذى يجر النضر إليه .

انكسرت نظرته وعاد إلى مكانه، انصرف الشيخ وهو ما زال يردد الدعوات، وعاد دياب، ليسند ظهره إلى السبيل وينتظر خروج النضر بعد انصراف أبيه.جلس يلف سيجارة أخرى فقد أضاع

الشيخ صالح أثر السيجارة الماضية. تاه بنظراته فى الفراغ. فاجأ صديقه برغبته فى خطبة أخته فاطمة. أخذ النضر نفساً عميقاً من سيجارته ولم يرد، فنظر إليه دياب نظرة عتاب، ولكنه ظل يفكر فى كلام صديقه قبل أن يخبره بخوفه من رفض والده، فهما يدركان جيدا أنه لن يوافق عليه، ولكن دياب كان يأمل فى أن تشفع له صداقة أبيه، وطريق الله الذى مشوا فيه سوياً، رغم أنه مدرك تماماً أن الشيخ يراه قد لطخ اسم أبيه ومرّغه فى الوحل، كما قال له فى مرات سابقة بسلوكه الشائن. أقسم له إن وافق الشيخ على زواجه من فاطمة سيترك نهائيا الجرى وراء النسوان وجلسات الحشيش، ويشعل دستة شمع كل يوم جمعة ولمدة عام كامل لمقام الشيخ "على" ضحك النضر طويلا وهو يتخيل ديابا واقفا أمام المقام يتبرك بالكسوة الخضراء،ويشعل الشمع، ويتمتم بالقرآن، هو الذى لم يصلِّ إلا الجمع والأعياد، ولم يدخل مقام الشيخ "على" منذ أن مات أبوه وجلس بجانب المقام ينتحب .ساعتها دخل عليه النضر، وأخرجه ومن يومها لم يدخل المقام. غضب من سخرية صديقه، وانتفض واقفا، واصل النضر ضحكه وهو يمسك بجلبابه، كى يجلسه. لم يجلس إلا بعد أن أخذ عهداً منه أن يكلم أباه فى الموضوع.:

- طيب اقعد بس متزعلش مش قصدى .أصلى بتخيلك وانت واقف تولع الشمع لمقام الشيخ بذمتك آخر مرة دخلته امته ؟

- من يوم ما دفنت أبويا.

- وآخر مرة صليت امته ؟

- إيه يا أخى ما الحال من بعضه .أنت بتقطمنى كده وأنت صاحبى،أُمال أبوك وعمر وعنتر هيعملوا إيه ؟

- يا أخى رد علىّ .

- آخر مرة الجمعة اللى فاتت. ما أنت عارف إلا صلاة الجمعة الحاجة فردوس تعملها مصيبة لو ما صليتهاش .

- ما أنا زيك معرفش ليه أهم حاجة صلاة الجمعة، بس ولا يهمك سوق على الشيخ الست أمك هو بيعزها. بيحترم ذكرى المرحوم أبوك وأكيد هيوافق.

فى المساء زارت أم دياب الحاجة دولت وراحت تتذكر الأيام القديمة، وبغمزة من يدها على فخذ الحاجة وبنظرة تلصص على الباب الموارب وبصوت هامس سألتها.

- أخبار جود إيه؟

ضربتها الحاجة بعشم وود وعُمْرٍ اقترب على الرحيل، وابتسامة العارف بخبايا القلوب.

- أنت لسه يا فردوس فاكرة ؟

- هو أنا أنسى فرحة عمرى كله برضو يا دولت؟

- تصدقى إنه مرة سألنى عليكى.

برغبة من حرم من الماء طوال أيام، وبعيون العاشقة طيلة الحياة، وبرعشة ابنة أربعة عشر عاماً قالت فردوس:

- أمتى يا بت ؟ بجد ؟ وسأل عليّ ؟ أنتى بتضحكى عليّ.

أنهت جملتها وفى عيونها أمل تكذيب دولت للجملة الأخيرة فقط .

- بالراحة يا أم دياب.لأ ما بضحكشى عليك ولا حاجة .

- طيب إمته ؟ وسأل بجد ولا سؤال كده فى السكة ؟

- بعد موت المرحوم بزمن. وسأل بجد وكان متأثر .

وكأن يد جبارة سقطت عليها وسحبت منها الحياة، فبدت لدولت امرأةً مسنةً و ضعيفةً حتى أنها مدت يديها وسحبت رأسها ووضعتها على فخذها، ثم راحت تمر بها على جسدها، وهى تدعو فى سرها لدقائق طويلة وفردوس غائبة عن الوعى أو ما يشبه ذلك. رفعت وجهها لتظهر عيونها المليئة بالماء السائب وقالت بصوت المؤنب لذاته:

- تصدقى يا دولت إنى يا ما دعيت عليكى.

- عارفة وعذراكى ياختى.

- ماكنش فى إيدى.

قالتها فردوس وهى تعطى الإذن لجسدها أن يتحد مع الماء ليكونا رقصة الندم والحزن والعشق والرغبة والحلم وكل عمرها الفائت ينتقص سنوات الطفولة والتى كانت على وجه الدقة أربعة

عشر عاما وبضعة شهور وبالتأكيد بضعة أيام وعصر يوم كانت عائدة مع أمها من عند خالتها فى ديرمواس، شاهدت فيه عبد الموجود يقف تحت شجرة الصفصاف، يرفع قلة ماء تطرطش على رقبته لتتساقط على صديرى، تظهر فيه خيوط الفضة لامعة من أثر بعض خيوط أشعة الضوء التى تغافل أوراق الصفصاف، على سروال أبيض، يسقط حتى منتصف الساق الأبيض الجميل .كانت لوحة عمرها التى رفضت منذ رأتها تتجسد أمامها بيد خالق باهر- منح بعض آثار ما يتساقط من فعل يديه لرجل يدعى دافنشى فرسم الموناليزا - أن تتنازل عن عشقها حتى النخاع لكن ذاك الخالق الباهر لعبد الموجود فى تلك اللحظة، كانت له قدرة أشد فى تسيير القلوب والمصير، لقد أحب جُوُد ابنة خالته دولت التى كانت تحب صالح ابن خالتها الآخر، وتزوجت به، ليرفض جُود ذاته أن يلمح ظل امرأة بعدها، وتسوق فردوس طوب الأرض عليه، لكن لا فائدة، فهو لا يرى امرأة غير ابنة خالته التى اختارت غيره.

تخاطب منا فى الوجوه عيوننا

ترانا سكوتا والهوى يتكلم

كان يحب ويعشق دولت التى كانت تعرف عشق صاحبتها فردوس له، ذلك العشق الذى ألزمها أن تقطع ألسنة الناس التى عرفت بعشقها له، وبدأت تلوك سيرتها، ألزمها ذلك العشق أن تتزوج

من أول واحد يتقدم لخطبتها، وكان محمود صاحب صالح الذى صار لها نعم الزوج والحبيب، ولكنه يوما لم يستطع أن ينسيها لوحتها التى رأتها فى لحظة فارقة بين الحياة والموت .

- اهدى ياختى وفوزى بالصبر .

مدت يدها وأمسكت بطرف الطرحة التى كانت تحت وركها وتحركت قليلا فى الهواء حتى تستطيع سحبها، ومسحت بها عيونها وهى تتلصص وتصيخ السمع على أصوات الأقدام التى تمر بالقرب من قاعة الحاجة.

- هو ربك عارف ومستنية نصيبى ياحاجة وعاملة حسابى ورحمة المرحوم .

ثم رفعت يديها فى اتجاه السماء وأضافت بصوت الواثق.

- ويشهد على أبو خيمة زرقا. من يوم ما دخلت بيته وعمرى ما عملت حاجة تغضبه وصاينة شرفه .ثم أنزلت يدها ونظرت مليًا إلى وجه صاحبتها القديمة وأضافت بصوت الطالب للمغفرة.

- أما اللى هنا ده بتاع ربنا .

ووضعت يدها على نقطة وحيدة ظلت توجعها وتؤلمها وتعذبها فى صحوها ونومها .وهى أمام الفرن، أو تحت ضرع جاموسة. فى حضن زوجها أو فى ركعتى الشفع والوتر.فى دموعها وزوجها يخرج محمولا على الأكتاف وفى طلة صغيرة على عبد الموجود الذى جرى

ليحمل النعش.

- ربك يحاسب بمعرفته لأنه هو اللى خالقه.

- وحشانى والله يا أم دياب.

- متشوفيش وحش ياحاجة ويجعله عامر ببركة ربنا والشيخ على والحاج صالح وما يحرمك من دخلته عليكى انتى وعيالك يا رب.

- قادر ياكريم والنبى يا فردوس يجعل يومى قبل يومه.

- صدقت، والنبى ياختى.أنا لايصة ووشى انكشف من ساعة ما مات.

- الله يرحمه ويجعل آخرتنا زيه ياختى.أنت فاكرة الرؤية اللى شافها الحاج صالح بعد موته بإسبوع.

- طبعا فاكرة.أمال إيه. ودى حاجة تتنسى برضو يا أم فاطمة.

- الله يرحمه كان من أصحاب الحاج اللى وسطه انقسم بموتهم.

- ده بس من كرمكم وبركات ربنا.ده لولا دعاه اللى كان بيدعيه والنبى يا دولت ياختى وهو نايم على دراعى كده كان يرفع عيونه للسما ويدعى إن ربنا يكرمه فى اللى قاسم وسطى وموّت المرحوم بحسرته.

- تقصدى دياب، شباب ياختى وبكرة يعقل.

قالتها دولت وهى تمد يدها وتربت بها على فخذ فردوس التى انسلت من يوم أن رفض جود أن يتزوج بها.

ـ إمتى بس يا أم فاطمة؟

ـ إن شاء الله عن قريب.

ـ عموماً يظهر فرج ربك قريب.

ـ خير إن شاء الله.

قالتها دولت وهى تحس بما يدور فى عقل صاحبتها منذ نادتها بأم فاطمة.

ـ النهارده قبل ما أجيلك على طول .لقيته داخل على وماسك المصحف فى إيده وقاعد قدامى وحط إيده على الختمة وراح حلفلى إنه هيبقى كويس ويشتغل فى أرضه ويسيبه من كل المشى البطال لو ربنا رضى عنه وحنن قلبك عليه.

ـ وأنا فى ديك الساعة يا أم دياب.قلبى وربى راضيين عليه.

ـ إحنا طمعانيين فى كرم الحاج صالح يا أم فاطمة.

ـ أنتى أختى والمرحوم أبو دياب كان ونعمة الأخ للشيخ صالح، بس أنت عارفة يافردوس ياختى عمايل دياب ومتأخذنيش أنتى أختى شال الحاج صالح على رأس فاطمة الوحيدة على أربع رجالة مفهمش غير النضر هو بس اللى زى دياب ربنا ياختى يصلحهولك.

ـ أنا عارفة كل اللى أنتى خايفة منه وعذراكى، بس ما على الرسول إلا البلاغ ويمكن دى تكون بداية جديدة، يرحم اسم أبوه اللى مرَّغه فى الوحل بمشيه البطال، الواد هيموت عليها، وحلف إنه

ما هيقرب من الحرام تانى لو وافقتو .هو هيجى قدامكم كلكم ويحلف على الختمة وأنا عرفته إن اللى يحلف على الختمة ويكون كداب بعيد عن البيت وأصحابه ربنا بيعميه ولا بيشلُّه.

- مش عارفة أقول لك إيه يا فردوس؟

- متقوليش ياحاجة .أنتى اللى بقيالى من كل الحبايب .وعارفانى وعارفاكى وعارفة ابنى كمان.

- أديكى قولتيها يا فردوس.

- حاسة بيكى ياحاجة .وأنت طول عمرك حاسة بيا.وبعد كده وقبله ياختى القسمة والنصيب .ثم أنزلت يدها المرفوعة فى الهواء وأضافت بصوت حزين.

- وأنا اللى مجربة القسمة والنصيب.

بتلك الجملة ودعت دولت فردوس بعد أن دخلت فاطمة عليهما، فوقفت لها أم دياب واحتضنتها كثيرا على غير العادة، ثم راحت تتحسس بيدها طول شعرها ومؤخرتها وقوامها و تتملى فى شرطة عيونها، وهى تكاد تطير من الأرض وتبسمل وتحوقل خوفا من عيونها التى لم تكن أبد لتحسدها.

تأكد لعبد الموجود أن ابنة خالته قد اختارت صالح بعد أن خيرتها أمها بين الاثنين، نظرت إلى الأرض، وقالت على استحياء لأمها- التى تمنت لها عبد الموجود،الذى كان قادراً على خطف كل

القلوب إلا قلب حبيبته - :

- بس يا أمي صالح متعلم وابن الشيخ حسين ووارث الطريقة بعد أبوه.

ساعتها تأكد للأم التي كانت عليمة بالقلوب، وخاصة قلب ابنتها أنها تميل إلى صالح. قالت في نفسها أن الاثنين ابنا أختيها ووافقت، وأخبرت زوجها بموافقة دولت على صالح.

حزن عبد الموجود كثيراً، قرر بينه وبين نفسه ألا يدخل لخالته أو لابن خالته بيتاً، ولكنه لم يستطع ذلك، وخاصة بعد وفاة أمه وتركه وحيداً مع أخته " صفية "، فاختار أن يتصالح مع نفسه ويعيش بينهم ويتمتع بحبهم وعطفهم، يكتفي بقربه المشروع من حبيبة روحه.

وفي لحظة فارقة بعيدة عن الزمن كانت فردوس صديقة دولت - التي لا تفارقها - عائدة مع أمها من المركز، حين كانت في زيارة لخالتها، وقعت عيناها عليه، وهو واقف يشرب تحت شجرة الصفصاف، وخيوط الضوء الساقطة على خيوط الفضة التي تخطط الصديري الذي يرتديه، تعكس وسامة وجهه. ذابت فيه الفتاة التي لم تعد بعد صغيرة . أسرعت إلى صديقتها ورفيقة روحها دولت .جلست أمامها، وهي ترتعش من فرط الحب الذي ملأ قلبها فجأة بعيداً عن المنطق والخجل، وصفت لها وقفته، وروحه وابتسامته التي

رماها بها دون أن يقصدها، استمعت إليها دولت وهى ذاهلة، ولا تعرف بما تعلق على كلام صديقتها التى فاجأتها بهذا الكلام، لم تتعود البنات فى هذه البيئة على البوح بهذه الطريقة. تعاطفت معها تماماً، واحتضنتها لتهدأ رعشة جسدها، ولكنها لم تجرؤ على نصحها بشيء،هى التى أحبت صالح، و صار زوجاً لها. النساء ليس مسموحاً لهن أن يقلن أنهن يعشقن، ويذبن فى العشق .عليهن انتظار الخطوة الأولى ممن يحببن، وإن لم تأت هذه الخطوة فعليهن كتمان هذا الحب، والرضا بالمقسوم. من لها بالرضا بالمقسوم ؟ توسلت لصديقتها أن تكون رسولها إليه. لم تستطع دولت أن تصارحها بحب عبد الموجود لها، لم تستطع كسر خاطرها. وعدتها بأن تجد طريقة للحديث معه بشأنها. وكانت صادقة فى وعدها، فقد حادثت صالح بشأنها .طلبت منه أن يتوسط لدى عبد الموجود بطريقة لا تجرح كرامتها .لما نظر إليها عبد الموجود، وصالح يحادثه أدركت تماماً مغزى نظرته، فهربت بعينيها بعيداً عنه، واكتفت بقولها :

- ليه يا ابن خالتى لو لفيت الدنيا مش هتلاقى زى فردوس ؟

- أنا خلاص مينفعشى اتجوز، كفاية علىّ ولاد صفية .

- بتتكلم كده ليه زى حدما يكون عندك ميت سنة،وماله لما تتجوز وتراعى ولاد أختك.

- لا خلاص، اليتامى محتاجينى أكتر .

ـ حد هيمنعك عنهم دى حتى فردوس بنت حلال .عمرها ما هتكلّ بيهم ولا بأختك.

ـماينفعشى يا بنت خالتى .ماينفعشى أمد طولى فى طول واحدة تانية .

تعجب صالح الذى تأكد له الآن أن ابتعاد جُود عن النساء، لأنه أحب دولت حد الموت وتجاهل جملة ابن خالته الذى يعرف مدى إخلاصه وأمانته وقال له :

ـ واحدة تانية ؟ هوه فيه واحدة أولانية؟ يا عم اتكل على الله، البت حلوة ومن بيت طيب.

ـ فيه واحدة تانية ربطانى هيه وولادها سيبها على الله يا صالح وربنا يعدل لفردوس حالها .

اغتسل بالماء والملح من أجل عيونها

دخل النضرعلى أبيه فى قاعة الشيخ (على) وجده يداعب حبات مسبحته. أمسك بيده يقبلها، والشيخ ينظر إليه فى عتاب وبقايا تسابيح فى فمه:

-إيه يا بنى أنت ملكش بيت ومرة من حقها تشوفك؟!

– إيه يا با ما أنا أهه موجود.

– موجود فين؟ عند دياب ورفاق السوء ؟ولا عند راوية؟؟

– أنت كل مـا تشـوفنى توبـخنى .أنا زهـقت.يعنى مـفـيش حـاجـة بعملها بتعجبك أبداً ؟

- وانت يا ابنى بتعمل إيه؟

- ما انا شـقيان طول النهار فى غيط العمدة مع ابنك أعمل إيه أكتر من كده .

–الله يرضى عنك يا بنى .دياب هيجيب لنا وجع الدما غ والحكومة بتدعبس وراه.

– حكومة إيه يا با هو بيعمل إيه يعنى؟

– يا بنى خليل المخبرحذرنى. بلاغات كتير وصلت فيه. بيسرق من خلق الله وهيجرك وراه.

– حاضر يابا حاله هينعدل بس أنت توافق وتجوزه فاطمة.

– واضح إن الحشيش لحس مخك. فاطمة طاهرة الديل والقلب يتجوزها أبو ديل نجس؟!

- يابا ده ابن الشيخ محمود من المريدين والإخوان.

– أيوه و دياب ضيع سمعته زى ما ضيع أرضه.

لجـأ دياب إلى أمـه، وهو يعرف تماما أن عـمـه الشـيخ، يُجلُّها، ويحـتـرمـهـا، فلم يستطع أن يرفض أمـام دموعـهـا، لعل حـال ابنهـا ينصلح بموافقته، ولما كان الشيخ أباً لبنت يخشى عليها، فوافق على شروط خُيل إليه أنها تضمن إصلاح حال دياب الذى تعهد له ألا

يقرب الحرام وأن يبتعد عن المشبوهين.

وتزوج دياب من فاطمة بعد أن اغتسل بالماء والملح، وبعد أن وضع المصحف على عينيه وأقسم أن يترك كل ما يغضب الله. حاول دياب جاهدا أن يحافظ على العهد بعد أن فاز بمنية القلب، وفردت طولها فى طوله، وتخللت أصابعه خصلات شعرها الذهبى كما كان يحلم تماما، لكن الحكومة لم تتركه فى حاله .مازال عندهم من الأشقياء، لم يغفر له دخوله عائلة الشيخ صالح، وإن حدثت أى سرقة فى البلد أصابع الاتهام تُشير إليه وتلاحقه.

تسمع فاطمة خبطات سريعة ومتلاحقة على الباب وصوت غاضب يقول:

-افتحى يا مرة حكومة.

ارتجفت وسألت دياب ماذا فعل.

- عملت إيه تانى يا دياب ؟

- ورحمة أبويا وغلاوتك عندى ما عملت حاجة، همه مش سايبينى فى حالى ومش هيسيبونى .

- إذا كان ربنا بيقبل التوبة العبد مش هيقبلها ؟

- قولى لهم يا ستى .أنا مالى .دايماً بيحملونا أى قضية علشان يعملوا ظبطية والسلام

- يعنى هيتبلوا عليك ؟

أقسم لها بكل الأيمان أنه لم يفعل شيئا، قفز من أعلى السطح إلى المنزل المجاور، ومنه إلى الشارع الخلفى.اتجه إلى مقام الشيخ (على) ارتعشت قدماه، وهو يقترب من المقابر فى هذا الوقت المتأخر من الليل، كان الضوء الباهت ينسرب من باب المقام، دق الباب فجاءه صوت الحاجة نبوية واهناً، قربت اللمبة من وجهه وقالت له :

ـ انت مين يا بنى ؟

ـ أنا دياب ابن الشيخ محمود يا خالتى .

ـ ابن فردوس ؟ تعال يا بنى. مالك ؟ إيه اللى جابك فى البرد ده؟

ـ معلش يا خالتى هبات فى حمى الشيخ للصبح .

ـ اللى يحتمى بيه ما ينضام يا عين خالتك ادخل .

جال بنظره فى المكان، كسوة المقام تتلألأ فى ضوء الشموع المتراقص، تحسس الحرير الأخضر. مسح على العمامة البيضاء الملفوفة على رأس المقام، وتبتل بالفاتحة فى سره. تسمع العجوز همسه، فتنظر إليه مشفقة، وتقوم إلى الحجرة المجاورة للمرقد العلوى .تضع بعض الطعام فى صحن كبير .تقدمه له باردا .

ـ معلش يا بنى كل لقمة والصبح يحلها حلال.

قبل يدها الممدودة وأقسم أنه ليس بجائع. كانت تخدم المقام منذ ما يقرب من أربعين سنة، جاءت إليه صبية فى التاسعة عشر بعد

فقد زوجها وهو عائد من سوق الخميس فى نزلة البدرمان بعد بيع محصول الفاكهة وتحميله على العربات التى اتجهت به إلى الإسكندرية. قبض ثمن المحصول وعده ورصه فى محفظته الجلدية ذات الكباسين الفضية اللامعة .ودع التاجر الذى اشترى منه. عاد بعد أن حرص على أن يشترى لعروسه وابنة عمه كل ما يلزمها من السوق.رآه بعض اللصوص. ترصدوا له فى عز القيالة فى الطريق الذى يفصل بلده اسمو العروس عن نزلة البدرمان .تكاثروا عليه . قتلوه وأخذوا نقوده، بعدها بسنة واحدة مات أبوها إثر سكتة دماغية أصابته. وجدت الفتاة نفسها دون عائل. طمع فيها العمدة وبعث إليها من يجس نبضها وينقل إليها رغبته فى الزواج منها .كانت ما تزال تحت تأثير صدمة موت الأب والزوج.رفضت وقررت فى لحظة لم تندم عليها أبدا أن تهب نفسها لخدمة مقام الشيخ (على) ذهبت إلى الشيخ حسين والد الشيخ صالح .طلبت منه أن ترعى المقام وتعيش فيه. تردد فى بداية الأمر خوفاً عليها أن تصير مطمعاً للشباب والرجال، وهى الجميلة التى لفت جمالها أنظار الكل، حتى العمدة نفسه طمع فيها، ولكنها أصرت وقالت فى ثقة تدعو للعجب

ـ اللى يعيش فى حماه ما ينضام، وأبويا جالى فى المنام، وطلب منى أبيع الجنينة وأربى بيها كام يتيم وأعيش على خيرات الشيخ .

وبالفعل نفذت الفتاة ما طلبه منها الأب فى منامها واتجهت للمقام

تقيم فيه، وتنفق وتأكل وتشرب مما يحضره الناس للمقام من زبد وجبن وحمام ونقود .

هدأت فاطمة بعد قفزة دياب على أسطح الجيران وفراره، ونزلت متمهلة، تعرك عيونها مدعية النوم، وفتحت الباب. دفعها المخبرون وانتشروا في الدار. غطت وجهها بطرحتها حين أحست بعيون ضابط المباحث تخترقها، بحثوا عنه فلم يجدوه. بدأوا يبحثون عن سلاح أو حشيش. كبوا الزيت والسكر وبعثروا كل شيء، بحثوا حتى في الزير لم يجدوا شيئا، فأراد ضابط المباحث أن يأخذها إلى النقطة ، ليأتي زوجها ولكن شيخ الغفر نصحه بعدم أخذها:

-لأ يا بيه بلاش ناخدها.

– هناخدها لغاية لما الخول بتاعها ييجى يطلعها.

ـ بلاش يا بيه دى بنت الشيخ صالح.

ـ يا رب تكون بنت بارم ديله، لازم ناخدها لغاية لما الخول ييجى. ده اللى هيجيبه على ملا وشه.

ولما كان ضابط المباحث غريبا عن البلد، ولا يعرف من هو الشيخ صالح، أصر على أخذها وفي النقطة أخرجها المأمور الذى يعرف قدر الشيخ واعتذر لها وبعث معها مخبرا ليوصلها إلى المنزل. شكرته وذهبت إلى منزل أبيها. فوجئ الشيخ صالح بابنته تدق الباب في ساعة متأخرة من الليل. حين فتح لها الباب ألقت نفسها في

حضنه، وبكت، هدأ جسدها المتشنج والحاجة تسأل فى لهفة ما الذى حدث.

- إيه يا بنتى اتخانقتى مع دياب ولا إيه؟

- يا ريت يا أمه كانت جت على كده.

- إيه يا حاجـة ؟ تهدا البنت الأول وبعـدين نـعرف منهـا كل حاجة.

- رحت النقطة يا با. اتبـهدلت.جـايين يدوروا على دياب مع إنه معملش حاجة.

شعر الشيخ صالح بطعنة فى قلبه. تركها تبكى فى حضن أمها .دخل المقـعد البـحرى جلس فـى ضـوء القنديل البـاهت يبـتهل، وبين الحـين والحـين ينظرإلى ظل امـرأته الذى يتطاول على الجـدار وهى واقفة تنظر إليه وتسح عيونها.

-لازم أطلقها منه.

- معلش يا شيخ صالح البت حامل.

- عيلها يربيه إخواله.

- البت صغيرة يا شيخ. هتميل بختها ؟

- أحسن من العيشة مع الفاسد ده.

-السماح يا شيخ. قلبك يساعه زى ما سايع غيره.

- إلا الحرام يا حاجة، إلا الحرام.

-معلش اصبر عليه بكرة ينصلح حاله.

-الصلاح من الله.أنا ماجوزتهلوش غير لما اتغسل بمية وملح وحلف على المصحف إنه هيسيب طريق الفساد .

بعد انصراف قوة المباحث إلى المركز، ذهب الشيخ إلى المأمور وتوسط لديه ، رجاه أن يخفف الضغط على دياب، استطاع أن يترك المقام ويعود إلى البلد .حضر إلى منزل الشيخ وجده جالسا أسفل التوتة التى تتوسط الدار،أصابعه تفتل حبلا يربط به البهائم. قبل رأسه وجلس بجانبه، وحرص على ألا ينظر فى عينيه. يغمس قطعة الليف فى إناء الماء الموجود بجانبه. ركز على الحبل الذى يفتله. عاود دياب تقبيل رأسه. أقسم أنه لم يفعل شيئا منذ أن تزوج فاطمة. نظر إليه الشيخ ونادى على ابنته التى كانت تتسمع من وراء الباب .أقبلت على استحياء، وجلست على أول درجات السلم. نظر إليها.الانكسار يلفها والحزن يقطر منها. سألها إن كانت تريد العودة معه بعد ما حدث؟ أومأت برأسها وتاهت فى الفراغ، نظر إلى دياب وقال له:

– دى المرة الأولى والأخيرة المرة الجاية هطلقها.

– يابا الحاج وأنا ذنبى إيه؟ والله ما عملت حاجة غلط خالص من ساعة ما اتجوزتها.

– تعال بعد صلاة العشا خدها.

انصرف دياب وواصل الشيخ ما يفعله وشفتاه لا تفتران عن التسبيح.

مشاغبة

استيقظت دولت مبكراً. اليوم الجمعة له طقس خاص.ترفض الخبيز أو أى شىء. لا تفعل سوى الأعمال الضرورية فقط، مثل حلب البهائم الذى تقوم به بنفسها، بعد مشاجرات الفزيصة المستمرة وانفصالها عن المنزل، الطبيخ توكله إلى صباح، تفضلها حتى على ابنتها، أحيانا تغار منها فاطمة .تطلق على بناتها بنات البكرية، (طبعا ما هية البكرية)، فتضحك أمها وتحتضن جسد سلوى النحيل وتقول لها تعالى يا بنت البكرية فتغتاظ فاطمة أكثر.

قامت الحاجة نشيطة مرحة بعد أداء طقوس صلاتها الصباحية .نزلت لتعد الحمَّام لزوجها.غرفت الماء من الزير فى حلة نحاسية .وضعته على الكانون، ثم كبت فيه الماورد وأدخلته الحمَّام. أيقظت زوجها الذى طوقها بذراعيه باسما فأبعدت يديه بلطف وقالت:

– قوم يا شيخ الحمام جاهز.

– طب ومستعجلة ليه خليكى جنبى شوية.

– يا شيخ يلا مايقطعلكش عادة، خد حمامك لغاية ما أجهزلك الفطار.

قرصها الرجل فى فخذها واقترح عليها أن يغيروا هذا الطقس الأسبوعى وغمز لها بعينيه العسليتين، فاحمر وجهها الأبيض المورد ولا بنت العشرين.قبلته فى رأسه وتركت يديه تمسكان بالفراغ، وخرجت.تعمد ألا يخرج بسرعة .عادت إليه.ادعى النوم . جلست بجانبه مرة أخرى على السرير النحاسى وهمست :

- يا شيخ، يا بو عنتر .أنت نمت تانى .

تعمد ألا يرد، كررتها مرتين، تسللت يده من تحت اللحاف الحريرى وطوقت وسطها، ضحكت وحاولت إبعاده ولكنها لم تفلح :

- بذمتك مش أجمل حاجة إننا نغير العادة دى تعالى يا شيخة نامى جنبى شوية .

- يا راجل قوم .عيب عليك باقى ساعتين على الضهر الشمس مغطية التوتة.

- مش مهم أديكى إنتى بتقولى باقى ييجى ساعتين، يعنى لسة بدرى.ماوحشتكيش؟

- يا راجل خلّص أحفادك مليين الدار بسم الله ما شاء الله وانت لسه هتعيده تانى .

- قصدك إنى كبرت، أنا لسه زى ما أنا وممكن أتجوز تانى .

- أنا اللى كبرت يا سيدى، ولو عايز تتجوز مش همانع .

- تقدرى ؟ وهوه أنا ألاقى زيك فين يا دولت .دول كلهم ستات

ورق، لكن أنت يا أم عنتر، تعالى بس وأنا أوريكى إنى لسه شايفك زى أول مرة شفتك. فاكرة كنت أنت وفردوس وأمك بتتفرجوا على الذكر والصوان الكبير اللى كان عامله أبويا، وأنا كنت لسه راجع من الأزهر فاكرة .؟ .

ـ ساعتها أنا حسيت ببصتك ليه، قلبى ارتعش، فخبيت وشى بالطرحة وأصريت إنى أمشى، وأمى خدتنى أنا وفردوس ومشيت .

ـ بذمتك من يومها مش كنت دايما بتتصنتى علينا لما كنت أنا وعبد الموجود بنزور أبوكى وخالتى ؟

ـ فعلا كنت بسمع صوتك أبقى مش على بعضى .

انتهز الشيخ فرصة الذكريات التى جعلت قلبها يرتعش، وأنامها على ذراعه، بعدها قامت على صوت صباح التى تنادى على ناهد ابنتها الوسطى وتسألها عن ستها الحاجة، ردت على صباح خجلة وخرجت، وضعت جمرات النار فى الإناء الفخارى الصغير ورشت عليه مسحوق البخور، وطافت به حجرات الدار. توقظ النائمين، وتطرد الشياطين.

جلس الشيخ فى الطرقة الواسعة التى تتوسط حجرات الدورالعلوى .يحتفظ بعدة حلاقته فى صندوق خشبى مخصوص. ثارت ثائرته هو الوقور العطوف حين وجد المرآة التى يحلق عليها ليست فى مكانها. أسرعت المرآة تهدئ ثائرته وتبحث له عن المرآة.

ثبتها على حاملين من المعدن وأخرج علبة الصابون الصغيرة وكوب الماء. وضع الصابون على وجهه بالفرشاة الناعمة وبدأ يحلق ذقنه والمرأة تطوف حوله تردد الأدعية وتتمتم فى صوت غيرمسموع إلا لها،وحين انتهى من حلاقة ذقنه وضع عليها الكولونيا وتحسسها بيديه، ارتدى الجلباب الأبيض المفرود بعناية على السرير، ولف الشال المزهر، ونزل متمهلا استعداداً للذهاب للمسجد ووراءه المرأة، مازالت تحمل الإناء الفخارى وتردد أدعيتها. التفت بوجهه إليها وغمز لها بعيونه وهمس :

- زى زمان ولا شخت ؟!

ارتبكت ولم ترد ولكنها ابتسمت فى حنان .

- تيجى نعملها كل جمعة .

دارت المرأة الخجل الذى بان عليها، وتلفتت حولها تبحث عن عيون قد ترى ارتباكها، ابتسمت له فى ود ودفعته دفعة خفيفة فى ظهره:

- يلا يا شيخ الجمعة هتفوتك

- أنا قلت حاجة أنا بس عايز أعرف رأيك .

- وده وقته الشيخ محمد رفع الأذان الأول انزل بسرعة .

كان النضــر يجلس مع دياب وبعض الأصـدقاء يدخنون المعسل المخلوط بالحشيش، أول مرة يغير السجائر بالمعسل. أفرط دياب فى وضع الحـشـيش. رأس النضـر تدور، أعـواد الذرة تبـدو له عـاليـة ومـتـشـامـخـة. نظر إلى دياب الذى امـتـلأ فـمـه بأنفـاس الدخـان، وجحظت عيونه، وهو يحاول أن يكتم أنفاس الدخان، واصل النضر تخيلاته حتى أنه رأى الشيخ صالح يمسك بالشيشة ويشد الأنفاس ويخرجها من أنفه مثلما يفعل دياب فى هذه اللحظة :

ـ يا سلام يا أبو الديب على المنظر اللى أنا شايفه .

ـ شايف إيه يا حاج على فرن بلاطته حامية ؟

ـ شايف عمك الشيخ صالح قاعد وسطينا وماسك الشيشة زيك دلوقتى .

ـ خيالك راح لبعيد لو أبويا جه من التربة يبقى أبوك يعملها .،

وضحك كثيراً حتى استلقى على ظهره وهو ينسج الصورة التى تخيلها فرأى الشيخ صالح يمرر الشيشة بينه وبين عمر والمريدين. بالغ فى خيـالاته فـرأى الشـيخ علىّ وباقى الأقطاب يشـاركون فى جلسة المزاج التى رسمها .. تعجب دياب من ضحكه الزائد وقال له:

ـ وعمر كمان يا بنى بيشد المبسم ويطلّع الدخان من منخاره.

-- طرت يا حلو ومفيش فايدة.

- مش أنا اللى أطير من الحشيش المضروب بتاعك.

- مضروب؟!

- ده أى حد يشوفك يعرف إنك مونون ع الآخر فما بالك بالشيخ صالح ده هينكد عليك

- آه يا جدع مش عارف هدخل البيت إزاى وأنا فى الحالة دى.

- قول يا شيخ العرب ونط من على الزريبة.

- يا شيخ العرب ؟

- أيوه.

- اسكت أحسن أنا لسه شايف شيخ العرب بتاعك وبقية المشايخ قاعدين زينا كده بيشربوا حشيش وينكتوا.

- وشيخ العرب بنفسه كان ماسك الشيشة ؟

- أيوه يابنى والدسوقى والشيخ على والشيخ صالح بيخدم عليهم برضو .

ثم هز رأسه لدياب وأضاف :

- أنا مش عارف يا أخى أبويا ده ملته إيه ده كان فى مصر أم الدنيا وفين ؟ ده كان ساكن الغورية اللى نسوانها يكفروا العابد،ومع ذلك عمره ما خرج عن الدور اللى رسمه له أبوه.

- أهو أخوك عمر صورة منه .

ضحك دياب ملء قلبه على النضر الذى شطح كثيراً بعد شرب الحجرين والذى سيطيرهما الشيخ صالح من رأسه بتوبيخه المعهود،وأعجبه منظر الأولياء وهم يشربون المعسل كما تخيلهم النضر ضحك كثيرا وقال للنضر:

- خيالك شطح بعيد والشيخ هيبهدلك لو شافك فى الحالة دى أحسن حل خدلك غُطُس فى المحمودية قبل ما تروح فَوَّق نفسك بيه .

توقف عن الضحك وبدأ يفكر فى الشيخ صالح والوعد الذى قطعه له، حتى يُعيد إليه زوجته، ولكنه ماذا يفعل، كلما حاول الالتزام تبحث عنه الحكومة فى كل مرة يحدث أمر فى البلد سواء كان له يد فيه أم لا ؟ تركه النضر غارقا فى أفكاره وقام متجها إلى المحمودية ألقى بجسده فى مياهها الباردة سبح طويلا وبعدها خرج. ابتعد وسار حتى وصل إلى شارعهم. تراءى له المنزل يبتعد كلما اقترب منه. حدث نفسه قائلا أنه مازال تحت تأثير حشيش دياب،وفجأة رأى رجلاً لا يعرف من أين أتى متجهاً نحوه ويقول له:

- وصل بك الأمر أن تتعدى على رجال الله؟!

- أنت مين يا عم؟!

- إن لم ترجع عن طريقك هذا ستعاقب. نحن نتركك إكراماً للرجل الطيب فلا تتجاوز. والزم حدود الأدب ولا تتطاول على أهل الله.

ذُهِل النضر ولم يَدر هل الرجل يخاطبه هو أم يخاطب أحداً لا يراه؟

واصل النضر طريقه، ولكن الرجل صرخ صرخة أفزعت طائراً كان ينام على شجرة التوت التى تتوسط المنزل الكبير. مملوءة صرخته بالضيق والغضب

(إلى متى؟ إلى متى؟).

عاد النضر مرة أخرى إلى الرجل حيث يقف كان يردد فى خشوع :

- أرواح المشتاقين تطير إلى حضرة المولى لمطالعة الجمال المطلق.

- سامحنى. مش هكررها تانى.اعف عنى لن أتطاول مرة أخرى

- غاية المحب ومناه.

هب نسيم لطيف ملك على النضر كيانه. تصاعدت أنفاس الرجل هادئة ولطيفة وهو يردد تسابيح مبهمة لم يتبينها النضر .ولكنه أحس برغبة ملحة فى البكاء. انكب على يد الرجل يقبلها. مردداً العفو والسماح. كان الرجل ناظراً إلى السماء التى ازدهرت بحشد كثيف من النجوم، والأرض ما تزال غارقة فى الصمت. لا يسمع فى هذا السكون إلا نباح كلاب يأتى من بعيد. شملت السماء والأرض سكينة وعذوبة جعلتا قلب النضر يتفتح وذهنه يصفو.

ارتعش قلبه وأراد أن يواصل طريقه ولكنه أحس أن قدميه قد تسمرتا فى الأرض. كان العرق يتصبب من كل جسمه. غابت الحوائط حوله مبتعدة. تلاشى الرجل.غاب فى حلم بعيد تحول الواقع

إلى موقع جديد . رأى نفسه وسط أرض فسيحة خضراء. الأشجار تحوطها من كل جانب. شم عبقاً جميلاً مختلطاً برائحة بخور لم يعهدها من قبل .على يمينه أضواء سماوية تنبعث من بناء متسامق وأصوات ذكر تبدأ خافتةً ثم تعلو . ملائكة بأجنحة نورانية خضراء تشده ببطء وتدخله داخل الحلقة المنعقدة. تناغم مع الأجساد المتماوجة والأصوات القدسية. صار جزءاً مما يحدث. علا صوته بالذِّكْر وأنفاس اللاهثين خلفه يرددون النغمات المتقدة بأنفاس طاهرة. تنهدت القلوب وانسالت الدموع. رأى عمر يمد إليه يده بكوب تفوح منه رائحة العنبر. الشيخ صالح يطوف حوله بمصباح يشع نورا صافيا.من أحد طرفى الحلم .عاد مرة أخرى حيث الرجل الواقف أمامه. رأى حوائط الدور ما تزال منتصبة، المنزل يرتفع عاليا وسط الدور . حدّق فى عيون الواقف أمامه يبتهل . ضياء قوى يلف جسده، ويبدد ظلام الليل. توسل إليه أن يخبره من هو؟ وماذا يريد منه؟ مسح الرجل بيده الوضاءة على رأسه وقلبه وأمره أن يترك اللهو والعبث. أن يرحل إلى جوار الحسين؛ ليكون بصحبته ويحيا فى خدمته. تلاشى الرجل النورانى والضياء الذى يلفه. سار النضر خائفاً وجلاً . الشوق والوله يذيبان كبده. طرق الباب طرقات متلاحقة. أسرعت أمه لترى من يطرق الباب بهذه اللهفة. هى تعرف أنه الوحيد الذى يتأخر إلى هذا الوقت من الليل، ولكن معه مفتاحاً

للباب، فمن يكون هذا الملهوف؟ خفق قلبها هل تورط مع دياب فى أمر والحكومة جاءت تطلبه ؟، ولكنها استبعدت هذا الخاطر. الحكومة لن تدق باب الشيخ صالح فى هذا الوقت من الليل. فتحت الباب .قرّبت اللمبة التى تتراقص فتيلتها من وجهه هالها ما ترى قالت له:

- ما لك يا بنى وشك أصفر زى اللمونة ؟!!

- أبداً يا أمه مافيش.

- مفيش إزاى؟! إنت برضه شارب الهباب اللى لاحس دماغك؟

- والله ما أنا عارف اللى شفته بجد ؟ ولا من الحشيش اللى شربته مع دياب ؟

أكمل النضر جملته، وجلس على حافة السلم .وضع رأسه بين يديه وبدأ يسترجع ما حدث.:

- يابنى ريح قلبى الله يرضى عنك

- عايزة إيه يامه سيبينى فى حالى لما أعرف اللى شفته ده حلم ولا حقيقة ؟

- شفت إيه يابنى ؟

- راجل يامه له هيبة والنور بيغطيه من راسه لقدمه، قالى كلام غريب عن السفر والحسين .

- سفر إيه يا عين أمك وعيالك ؟

ـ والله ما أنا عارف يظهر مخى زى ما بتقولى اتلحس .

ـ خليك يابنى قاعد فى الهواء يمكن يفوقك لغاية لما أشوف أبوك .دخلت الحاجة المقعد البحرى . أبوه جالس يتعبد. أخبرته، فخرج مسرعاً إلى ابنه الجالس هناك مرتعشاً ومحموماً. أدخلته حجرتها وبدأت تطوف حوله بمبخرتها النحاسية. طلب منه الشيخ أن يعيد على مسامعه ما حدث. وحين أكمل النضر حكايته وتحت إلحاح والده الذى وقف حائراً بين تصديق ابنه وتكذيبه حكاها للمرة الثانية :

ـ الله وأكبر يا بنى والله ده الخضر

قالها الرجل بفرح غامر وقلب يشكر الله.

ـ عليك السلام ورحمة الله وبركاته ،

هكذا أسرعت المرأة الملهوفة تردد .

ـ بتسلمى على مين يا حاجة ؟

ـ على الخضر ياعين أمك لما تجيب سيرته بيحضر بجسمه وروحه ويسلم عليك .

وضعت الأم رأس ابنها فى حجرها . بدأت تدعك له جسده بالخل، دخل الأب قاعة الشيخ علىّ ليكمل قراءة ورده.

ما زال جسد النضر يرتعش. دفأته أمه بلحافها الحريرى. جلست بجانبه تفكر فيما قاله الرجل . قبل أن تستيقظ ديوكها وتعلن

عن اقتراب الفجر. كانت عيونها ما بين اليقظة والنوم. فُتح باب الحجرة . دخل رجل فى ملابس بيضاء. فتحت عينيها . أغلقتهما مرتين حتى تتأكد من الواقف أمامها . مدّ إليها يده بحق صغير له رائحة طيبة أمرها أن تدعك له جسده به بدلاً من الخل، وقبل أن تفتح فمها لتقول كلمة قال لها الرجل:

- لا تقفى فى طريق مشيئة الله. دعيه يرحل. الحسين بانتظاره . قال جملته واختفى.

- اللهم صلى على طه الحبيب، لا والله ده الخضر يا ابن بطنى .

كان النضر مازال راقدا محموما فلم يسمع جملتها، دعكت جسده الذى يرتعش بالحق الذى تفوح منه رائحة عطرة وبدأت تدعو وتقرأ أدعيتها . كانت تصلى على النبى بين كل دعاء. هدأ الجسد تماماً. فى الصباح جلس الشيخ مع ابنه وأخبره أنه موافق على ذهابه إلى مصر، ولكن عليه أن يمهله بعض الوقت حتى يتحدث مع إخوانه من محبى آل البيت .عليهم أن يساعدوه على الاستقرار هناك.

لقد كانت كلمات الرجل شرارات تفجرت فى أعماق النضر بكل ما يكمن فيها من طاقات إيمانية، كانت تنتظر الميقات لتشق طريقها كالإعصار، لتنبت أزهار الحب الإلهى فى ذلك القلب الذى طالما انتقد من يتفانى فى طريق الله.

في المساء أخبر زوجته باقتراب سفرهم .لم ترد فايزة في بداية الأمر، بل جلست على حافة السرير صامتة .

- إيه يا فايزة مش عايزة تسافرى ولا إيه ؟

مئات الصور والتخيلات تمر في ذهنها. لقد تربت في هذا المنزل. طفولتها وشبابها أفراحها الصغيرة حين كانت تتسلل هي وفاطمة لتتسمع إلى حلقات الذكر، وحين تطلب منها الحاجة أن تصعد إلى حجرة النضر لتنظفها. تخيلاتها لحياتها القادمة معه. أحزانها الكثيرة حين كانت تسمع بقصص مغامراته مع الفتيات . حبها الصامت له. كل شيء مر أمام عينيها.

- ماتخفيش ربنا معانا .

هي تعيش على هامش الحياة في هذا المنزل. لا دور لها في تصريف الأمور. لا تفعل إلا ما يُطلب منها. عمها الشيخ يُحبها . يحرص دائماً على الوقوف بجانبها في كل موقف. الحاجة تحبها أيضاً، ولكنها لا تعتمد عليها في شيء مثل صباح.

- وبعدين يا ستى هتعيشى جنب سيد الشهداء علشان ربنا يبارك في عيالنا .

زوجها لا يهتم بأمرها وأمر ولديها أحمد وزهير. سفرها إلى القاهرة هل سيكون في مصلحتها؟؟ هل تستطيع أن تتحمّل مسئولية الزوج والولدين بمفردها؟؟ النضر لم يترك امرأة ولا بنتاً إلا وجرى

وراءها .ماذا سيفعل فى مصر وهى تسمع عن نسائها اللاتى لا يخجلن، بل يسعين وراء الرجل . يوقعن به فى شباكهن ولو كان تقياً؟ هل توبة النضر حقيقية.هل يستطيع أن يترك اللهو والأصدقاء؟ كل هذا مرّ فى ذهنها والنضر يعاود سؤالها عن رأيها.

- وكمان عيالنا يتربوا كويس ويتعلموا بعيد عن تعب و شقى البلد.

نظرت إليه ولم ترد ولكن دموعها غلبتها انسابت حارّة ومؤلة. تحيّر من بكائها. ماذا يفعل ليطمئنها؟. مدّ ذراعه طوّق جسدها المرتعش. لأول مرّة تشعر بحنانه. لأول مرّة تشعر بعطفه فلم يلمسها يوماً إلا لقضاء رغبته. الآن يحتضنها بحنو وعطف بالغين. استكانت تماماً فى حضنه ولم تأتِ بحركة واحدة . تخشى أن يترك جسدها المتعطش للدفء. رفع رأسها بيديه ونظر فى عينيها تماماً وقال فى ود:

- أديكى شايفة الواحد بيفضل من أول النهار محنى ضهره على الطورية والفاس ودايما بنزرع فى أرض غيرنا، بنشقى، وغيرنا يلم خيرنا وشقانا. سيبيها على ربك اللى لا يغفل ولا ينام.

حين اقترب موعد سفرهم أخذتها الحاجة إلى حجرتها وبدأت تعطيها نصائحها. تعلمها كيف تحافظ على بيتها وزوجها، وفايزة تستمع إليها وجلة وخائفة من الحياة الجديدة المقبلة.

ولم تنس صبـاح وفاطمة أن يطمئناها ويقولا لها أنها ستذهب إلى مصر أم الدنيا، وأنها سترى الحسين والسيدة وكل آل البيت، وهى تضحك حيناً وتتخيل حياتها المقبلة وتحاول رسمها فى ذهنها حيناً آخر.

انطفاء الضوء

ضوء شديد غمر الدار وانطفأ فجأة. فتح الشيخ باب المقعد الذى ينام فيه .خرج إلى وسط الدار. نظر إلى السماء كانت صافية والنجوم ما تزال فى مكانها. نقبض قلبه ودخل حجرته. اطمأن على كل شىء فى المنزل .أخرج الساعة من جيب الصديرى نظر .الفجراقترب .الحاجة على غير العادة ما تزال نائمة. دخل عليها المقعد رفع فتيلة المصباح .وجد رائحة البخور تملأ المكان.نظرفى أنحاء الغرفة .بحث عن المبخرة وجدها على السحارة الخشبية .ليس بها بخور أو نار. اندهش، واقترب من السرير كانت الحاجة تلف ذراعيها حول جسد سلوى.لا يعلم لماذا جلس على السرير يتأملها. كأنه يراها للمرة الأولى .كان يحلو له أن يجلس بجانبها بعد نومها يتأمل وجهها. كانت ملامحها راضية كمن أنجز كل المهام التى طلبت منه. جلس صامتا تماما لا يبدى حركة حتى لا يوقظها. يعلم أنها ستستيقظ كعادتها حين يطيل النظر.لم تتحرك. لم تفتح عينيها

باسمة، وتلومه على جلوسه هكذا كعادتها. طال انتظاره لاستيقاظها، ولم تفعل أخرج الصغيرة من بين ذراعيها فلم تتحرك. جس نبضها كانت قد فارقت الحياة. يعرف الآن لماذا انقبض قلبه حين انطفأ النور الذى غمر الدار؟ خرج بالصغيرة ونادى على عمر حتى يأخذها فخرجت إليه صباح وقالت :

-- خير يابا البت مالها ؟

– مفيش سمى عليها ونيميها جنب إخواتها وتعالى .

– فيه حاجة ؟ أصحى عمر؟!

– ياريت.

خرج عمر من حجرته متجها إلى أبيه الذى جلس فى انتظاره بجانب الحاجة. لم يكن يظهر على وجهها علامات الموت. كانت كمن يحلم. كان يقرأ فى المصحف ودموعه تنساب فى صمت .قال عمر:

– ما لها أمي؟.إيه الحكاية؟

– ربنا استرد أمانته يا ابنى.

ضربت صباح على صدرها حين أخبرها عمر وجلست ذاهلة لا تدرى ماذا تفعل. عمر يخرج من حجرة يدخل أخرى. نظراته تائهة. يلف الدار، لا يدرى عما يبحث، دخلت الحجرة كان الشيخ ما يزال يقرأ وعيونه تسح، وعمر يلف حجرات المنزل. دخلت حجرة الخزين وأحضرت (الأذان) الكبير وملأته بالماء وأشعلت تحته النار وجلست

تنتظر. كانت تفكر فى حالهم .الحاجة عمود الدار .أسئلة كثيرة طافت ببالها. بين لحظة وأخرى تغمس كفها فى الماء تجس سخونته .الدموع تستعصى عليها. حين ثقل عليها الجسد الممتلئ نادت على عمر. أمسكها من تحت إبطيها وهى تخلع عنها ملابسها المعطرة .أجلسها فى الطشت .لم يحرك عينيه عن مؤخرة رأسها. لا يريد أن ينظر إلى جسدها. قالت له صباح من خلال دموعها:

– اللهم صلى على النبى جسمها زى البنت البكر.المية مبتعلمش فيه. زى ما يكون مدهون بالزبدة.

. ظل يحدق فى مؤخرة رأسها، قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ دى موطوطة .

لا توجد فى جسدها شعرة وحيدة. لفتها فى ملاءة بيضاء وأرقدتها على سريرها. دخل الشيخ بعد أن خرجت صباح وجلس بجانبها يقرأ القرآن.

قال له عمر:

– قوم يا با الفجر أذن اتوضى وصلى.

– حاضر يا بنى بس سيبنى أونسها فى وحدتها.

– صلى يا با وارجع اقرالها اللى أنت عايزه.

– اروح اخبط على عنتر أصحيه يابا؟

–لأ يا بنى مفيش دفن غير الصبح سيب الكل نايم مستريح.

ذاع خبر موتها. امتلأت الدار بالنساء والأطفال .الرجال جلسوا على الدكك التى اصطفت على جانبى الشارع. فاطمة تصرخ وتلطم وجهها. أمسكها عمر بيدين قاسيتين وأقسم بالله إن سمع امرأة تصرخ أو تعدد سيضربها. النساء خفن منه لا يرجع فى كلمة قالها. صمتت النساء وجلست فاطمة على باب المقعد تكتم دموعها وبين لحظة وأخرى تقول:

-الحاجة تموت طب أجى لمين؟!

- تيجى لأبوكى وإخواتك يا فاطمة.

- ماتت أمك يا صباح. خلاص يا بكرية معدش ليكى حد.

- البركة فيك وفى إخواتك يا فاطمة.

- خلاص يا ختى الكل ضهره انقسم.

-اسكتى يا بت عقلك هيشت.

حاولت فاطمة أن تصرخ. أن تتمرمغ فى الأرض. صباح منعتها وذكرتها بقسم عمر فقالت لها:

- دى الحاجة يا صباح تبقى جنازتها باردة كده.

- نارها عمرها ما هتبرد بس كل ده مش هيرجعها.

- هيبرد نارنا يا بت.

- ربنا يبرد قلبك. اذكرى الله أحسن.

- جايلك العقل ده منين. بكرة الصبح مش هتلاقى الحاجة

تصحيكي وتربيلك بناتك

– ربنا يصبرنا على فراقها يا فاطمة.

أقبلت المغسلة تتكئ على عصاها. أفسحت لها النساء ودخلت ومعها صباح .قربت من يديها الماء الساخن. أجلستها المرأة على الخشبة باتجاه القبلة ضمت ركبتيها إلى صدرها وأعادتها مرة أخرى أجلستها ثم أنامتها ولما سألتها صباح لم تفعل ذلك أخبرتها أنها تحاول أن تخرج من بطنها أى غائط أو ريح حتى تقابل ربها طاهرة مطهرة قالت لها:

– الحاجة عمرها ماتعشت. دايما تنام خفيف.

–اللهم صلى على النبى بصى ابتسامة الرضا اللى على وشها؟ زى العروسة اللى هتتزف لعريسها.

– الكرم باين على وشها أنا عمرى ما عديت عليها إلا وملت لى الشوال من كل خيرات الله.

– خيرها على الكل اسم الله عليها عمرها ما كلت حاجة لوحدها.

حين انتهت المغسلة من طقوسها لقنتها فى أذنها ما ستقوله ساعة السؤال :

- اسمعى يا دولت يا بنت زهر الورد .لما يسألوكى مين ربك قولى الله ومين نبيك قولى محمد ودينك الإسلام.

لفتها فى الكفن الأبيض وأرقدتها فى لحافها الحريرى ثم

وضعتها فى الخشبة :

- ياعمر الحاجة جاهزة للرحيل

- وشها عامل إيه يا صباح ؟

- ما شاء الله ياعمر النور طالع منه زى البدر المنور .

انفلت عبد الرحيم من بين ذراعى عمر .أسرع إلى مقعد أمه. ظل يبكى ويصرخ ويحاول أن يزيل الشاش الملفوف به وجهها .المغسلة تحاول منعه. أخذه عمر فى حضنه وهو يناديها ويمد ذراعيه نحوها. يتشبث باللحاف وهى لا تقوم إليه كعادتها، ولا تطبطب على ظهره حين يثور. انطلقت النساء فى الصراخ والعويل حين رأين عبد الرحيم يناديها. لم يجرؤ عمر على إسكاتهن، أو حتى الاعتراض على ما يفعلن .حين خرج الرجال بالخشبة التى ترقد فيها الحاجة، توسطت الفريصة المندبة التى انتصبت. تناوبت النساء على النزول وسط الحلقة .صباح تجلس على عتبة قاعة الشيخ على تحتضن جسد عبد الرحيم المتشنج وتبكى.

عاد الرجال من الدفن .دخل عمر كانت تحية تتوسط المندبة وتعدد مناقب الحاجة وباقى النساء يرددن وراها مثل جوقة المغنيين:

يا مغربة يا قارنة الكمين

يا محشمة الرجالة بالصفين

يا مغربة يا قارنة كمامك

يا محشمة الرجالة قدامك

- يا صباح امنعيهم وقولى لتحية مش هيحصلها طيب .

- النار واكلة القلوب يا خويا سيبهم.

- ويحرقوها بعديدهم، يعنى همه هيرجعوها .

فاطمة تستمع إلى صوت تحية وسط المندبة وتسح دموعها. انفلتت من يدى صباح اللتين تحتضنان جسدها المرتعش .أبعدت الفريصة بذراعها ودخلت المندبة علا صوتها وهى تعدد على أمها:

أمى الحبيبة ودها بودين

ود خفى وود قبال العين

أمى تغطينى بكم طويل

وتخاف على م الذل والتهويل

أمى تغطينى بشعر الراس

وتخاف على من كلام الناس

حميت المندبة على عديد فاطمة التى اختنق صوتها بالبكاء .لم تستطع أن تكمل العدودة أسرعت صباح إليها وشدتها من يدها وأجلستها بجانبها يبكيان فى صمت.

حين لمحت الفريصة عمر،علا صوتها وازدادت المندبة حدة. حتى لا تعطيه فرصة للاعتراض.

سحب عبد الرحيم من يده وتبعته صباح. صعد إلى الدور العلوى غير له ملابسه، ثم نزل به إلى الصوان المقام. مال على أذن عنتر أمره أن يدخل لزوجته حتى تنهى المندبة المنصوبة :

- خش لمراتك خليها تسكت هيه اللى محمية المندبة.

- ما تسيبهم يا أخى عقل نسوان فارغة شوية هيتهدوا ويسكتوا لوحدهم .

- عيب ميصحش داحنا بيت علم والناس بتقلدنا

- خايفين لحسن الناس يقولوا رخيصة عليهم وجنازتها باردة .

جلس عمر بجانب الشيخ، بعد أن أصر على قيام أخيه ليسكت زوجته التى لا يقدر أحد عليها غيره. انتبه إلى الشيخ الذى كان ينظر إلى عبد الرحيم وقلبه يتمزق .فمن سيعتنى به بعد رحيلها؟، وتذكر صباح التى تشربت من الحاجة كل طباعها وهدأ تفكيره.

حين انصرف المعزون الذين أقبلوا من مختلف البلاد العامرة بالأحباب وإخوان الطريق. جلس الشيخ مع إخوانه الذين أتوا إليه من عند شيخ العرب وآل البيت فى قاعة الشيخ (على) صنعوا دائرة وأمسك كل منهم بمصحفه وبدأوا يقرأون القرآن، عله يؤنسها فى ليلة الوحدة. أخرج دلائل الخيرات من الصندوق الخشبى وطلب من عمر أن يقرأ لهم .علا صوته بالصلاة على محمد النور الذاتى والصحبة الطيبة تردد وراءه. قام عبد الرحيم من جانب أخيه وبدأ

يتمايل ويبدأ يقول: الله حى. الله حى. ازداد تمايله وهو يطوّح ذراعيه يمينا وشمالا والريم يسيل على وجهه توقف الأخوان عن الترديد وهمس عمر لأبيه:

- عبد الرحيم طاف

- عقله مش قادر يستوعب اللى حصل

- أحاول أقعده يا با .

- سيبه ربنا يبرد قلبه

قام الجمع الملتف حول الشيخ صالح واحدا واحدا وبدأوا يتمايلون بجانب عبد الرحيم والشيخ يرقب ولسانه لا يفتر عن التسبيح والذكر.

ولما تعب الرجال جلسوا ليستريحوا. تهاوى عبد الرحيم بجانب والده .احتضنه الشيخ وبدأ يقرأ على رأسه القرآن حتى نام. حمله عمر وأدخله إلى حجرة أبيه وقام الأخوان إلى مكان مبيتهم. رقد الشيخ بجانب ابنه الملتاع واحتضنه ونام. فُتح باب المقعد. دخلت الحاجة ترتدى ملابس بيضاء واسعة. والنور يشع من وجهها. كأنه تزوجها بالأمس جلست على السرير.مسحت بيدها على رأس عبد الرحيم وبدأت تردد أدعية. مدت يدها أيقظت الشيخ اعتدل ونظر إليها ذاهلا مسحت على صدره وقبلت رأسه وانصرفت مد إليها يده وناداها .لكنها لم تجبه. حين اقتربت من الباب سمع صوتها يردد

اسم صباح. أغلقت الباب خلفها. جلس يفكر هل ما رآه حلم أم حقيقة؟

حين دخل عمر على زوجته بعد أن أرقد عبد الرحيم بجانب أبيه وجدها محتضنة ركبتيها وجالسة. أغلق الباب .لم تشعر بوجوده .وضع يده على كتفها ففزعت قال لها:

– ماتخفيش. لسه مانمتيش؟؟

– مش قادرة حاسة إن أمى هتنادى دلوقت.

– لو تشوفى دفنتها. كانت طايرة طيران. الرجالة كانوا بيجروا وراها مش ملاحقينها

– شفت الخلق اللى كانت ماشية وراها؟

– تخيلى كل دول صلوا عليها.

– يا مشاء الله . دى كانت زفة مش جنازة بس اللى لا يسامحها كوتها بالعديد والصويت

–أمى تبرأت من كل واحدة تلطم وتصوت فى جنازتها.

نامت صباح وهى خائفة ومهمومة من ثقل المسئولية التى أُلقيت على كتفها، ولما استغرقت فى النوم أيقظتها الحاجة أجلستها وأمرتها ألا تتحدث، تستمع فقط. فتحت صباح عينيها ذاهلة والحاجة من خلال النور الذى يحيط بوجهها قالت لها:

–صباح خلى بالك من البيت

-أنا خايفة ياأمة مقدرش أسد.

-هتسدى بإذن الله. خلى بالك منها أوعى تزعليها

-مين يا مة؟!

- عمرة الدار.أكيد هتصحيكى للصلاة وهتراعى معاكى البيت.

-بس أنا خايفة منها طول عمرنا بنسمع عنها وماحدش اتعامل معاها غيرك.

-عمرها ما هتأذيكى بس أنت أعرفيلها حقها وأوعى تسيبى الزير من غير كوز وطول ما أنت بتخافى من ربنا كل حاجة هتبقى فى خدمتك، وهتتسخر لك .

- ماتسيبيناش يامة .

ثم مدت يدها وحاولت أن تمسك بها لتتأكد من وجودها وهى تضيف:

- بس دى أذت عبد الرحيم .

- لا ماتصدقيش الكلام ده بكره تعرفى حقيقة عبد الرحيم لما يأذن المولى .

- ماله عبد الرحيم مش عمرة الدار لبسته لما ضرب القطة .؟

- بكره الحال ينكشف وتعرفوا حقيقة الشيخ رحومة، ربنا معاكى وصيتك عبد الرحيم وفاطمة وعيالها.

انصرفت الحاجة بعد أن قطعت صباح على نفسها كل الوعود

اللازمة سمعت صوت الشيخ صالح يتنحنح قامت إليه وقالت له:

- إيه يا با أنت ملحقتش تنام

- الفجر أذن قمت علشان أصلى

- جتلى فى المنام

-أنت كمان.

- ده ماكنش منام ده حقيقة زى ما أنا شايفك قدامى كده

-إى والله يا با ده زى ما يكون بحق وحقيق أنا مصدقتش قلت أكيد حلم

-الكلمة الوحيدة اللى قالتها وهية خارجة اسمك.رددت اسمك كذا مرة

-أنا مش عارفة هعيش من غيرها إزاى ؟ معرفتش أم غيرها دخلت بيتكم وأنا صغيرة كان عمرى اتناشر سنة.

- أنا كما اتجوزتها وعمرها حداشر سنة تقريبا يعنى عاشت معاى خمسين سنة

صلى الفجر وعاد إلى حجرته أحكم الغطاء حول جسد عبد الرحيم ودخل حجرتها ولما سألته صباح لم خرج مرة أخرى أخبرها أنه سينام فى سريرها ليستأنس بها فى ليلة وحدته هو لا وحدتها؛ فهى على الأقل القرآن الذى قرأه لها يؤنسها ومن يؤنسه هو.؟

رفع اللحاف الحريرى الذى غطوا به الخشبة ساعة الدفن. مازال كل شىء يحمل أنفاسها احتضن وسادتها ونام .

استقر النضر فى عطفة صغيرة بجانب الحُسين. ساعده الشيخ صديق إمام المسجد فى البحث عن عمل. وجد عملاً فى مكتبة أمام المسجد، وبمرور الوقت اشتراها من ورثة الرجل الذى أحبه كابنه .حلم بعيد يتراءى له. حلم تكفير ذنوب ارتكبها.طاقة نور انفتحت ذات رؤيا.

لم ينشغل بشئ عن عمله وأسرته .ربما بعد العشاء يذهب إلى بيت الشيخ صدّيق فى الدور العلوى حيث خلوته التى يتعبّد فيها، يجلس بين يديه يسمعه ما حفظ من القرآن والأحاديث، ويحدثه عن الأقطاب وشموس المعارف.

ترقُّ ملامح الشيخ وتفيض عيونه دموعا كثيرة .. يسترسل فى الحديث عن أولياء الله. ثم يضرب فخذ النضر بيد حانية ويقول :

ـ أولياء الله الحقيقيين الذين يعطونا النفحات والبركات، وليس هؤلاء الذين يدّعون السير فى الطريق وهم لا يعلمون عن حق الطريق شيئا.

تعلق قلب النضر بالمسجد .وأضناه العشق وارتقى أوج التحقق والعرفان. صار منزله مقصد المريدين وأحبة آل البيت .حرص على إقامة حلقة الذكر مثلما يفعل والده فى قاعة الشيخ علىّ .

حرص النضرعلى إقامة خدمة لمحبى آل البيت كل سنة فى موعد

الحسين ولم ينقطع عن هذه العادة أبداً. حين مرض زهيرابنه. اقترب موعد الخدمة. لم يكن مستعدا لها، جاءه الحسين بالليل وذكره بالموعد وترك كل شيء لله.

فايزة امرأة كانت تعيش على هامش الحياة؛ لم تكن تثير غيرة أحد ولا تلفت نظره، لم تكن تفعل شيئا سوى غسيل ملابس زوجها وانتظاره طوال الليل. رغم أنها تربية الحاجة. صارت الآن امرأة أخرى. تعلمت من جاراتها اللاتى كن يساعدنها فى الإعداد للخدمة كل شيء. أصبحت تجيد الطبيخ والتوفير طوال العام لمساعدة زوجها فى خدمة المولد. لم تقل لا يوجد أبداً.دائماً تقول للنضر حين يقترب الموعد (خيرك كتير وبيتك عمران).

امتلأ جسد فايزة وصارت ترسم عيونها بالكحل. تحبك المنديل المشغول بالخرزعلى جبينها، وتجلس فى انتظاره. تبذل كل ما فى وسعها لإسعاده،.تعرف جيداً أن زوجها يحب النساء. وجوده فى الصعيد منعه من الزواج بأخرى. اليوم لن يرده أحد إن فعلها.

مرت الأيام وتعلق النضر بزبيدة ابنة الشيخ صدّيق التى شغلت قلبه. شعرت المرأة بمشاعر زوجها ...تخشى أن تلمح حبه فى عيون البنت. تتعمد أن تتحدث عنه أمامها . تلمح تلك النظرة التى تعرفها جيداً حين تشتاق امرأة إلى رجل.

تأكد لها أنها لن تستطيع أن تمنع النضر من التفكير فيها.

حبها ملأ قلبه. صار صامتا تماما لا يتحدث مع أحد .تؤكد لنفسها أنها تحبه وتسعى لفرحه .هل هى قادرة على تخيله مع غيرها ؟! زهير يقفز فى حضنه يكتفى .يده تتحسس رأسه .. ثم يبعده صامتاً، يغضب الصغير. ويجرى إلى أمه. يدفس نفسه فى حضنها ويبكى. تداعبه، حتى ينام، والنضر لا يلتفت إليهما .ماذا تفعل .له نحل جسده. صار جلداً على عظم .تأكد لها الآن أنه ليس أمامه طريق آخر غير الحلال .

قررت أن تصارحه بمخاوفها، وإن وجدتها صحيحة ستخطبها له بنفسها .

صبرت على نزواته كثيراً قبل أن يسير فى طريق الإخوان. زاغ ببصره فهو يعرف مدى حبها له، هو يدرك تماماً حسرتها التى لا بد واقعة إن فكر فى الزواج بامرأة أخرى. هى ابنة عمه التى يحبها الجميع ويتعاطفون معها؛ لا يستطيع الفكاك من أسر عيون زبيدة التى تتعمد أن تطيل النظر فى عيونه، ولا ترخى رموشها الكحيلة إلا حين يبدو عليه الارتباك، يحاول الهرب منها ولكنها تطارده بنظراتها، هى ابنة شيخه ولا يجوز له هتك سترها. مرات كثيرة حاولت دس ورقة فى يده، حين يقابلها على السلم أو تحضر صينية القهوة. تأكد له أن هذه الورقة خطاب منها. يهرب دوماً .لا يعطيها فرصة لتنفرد به، ولكنه لا يقدر على منع نفسه من التفكير. كل هذا دار فى

ذهنه، وفايزة ما تزال جالسة قبالته على السرير تنتظر إجابته على سؤالها، وقلبها يرتعش، عرفت الإجابة - هى التى صارت عليمة بأحواله أكثر من نفسه - حين هرب ببصره بعيدا عن عيونها. حين طال صمته ابتسمت وقبلت رأسه وأخبرته أنها ستذهب فى المساء للحديث مع أمها.

لما وصلت هناك طلبت من الحاجة نفيسة أن تختلى بزبيدة. سألتها مباشرة، ودون تردد وهى تحدق فى عينيها تحاول أن تخترق قلبها لتعرف أسرارها:

- بتحبى الحاج نصر يا زبيدة؟

ارتعشت زبيدة ثم نظرت فى عينى أم أحمد وقالت:

- أيوه يا أم أحمد سامحينى مش بإيدى .

- تتجوزيه؟

لا تعرف لماذا كانت تنتظر من أم أحمد هذا السؤال. مرّنت نفسها على الإجابة عليه .أعادت أم أحمد السؤال فقالت زبيدة:

- وانت هتوافقى؟

- ما دام بيحبك.

لملمت المرأة ثوبها، ومدت يدها بطرف طرحتها، لتزيل دموعاً فرت من عينيها . سارت منتصبة وثابتة الخطو إلى الخارج. وجدت الأم جالسة على الكنبة وأمامها صينية القهوة والكنكة تكاد تفورعلى

السبرتاية النحاسية. صبت الفنجان وناولته لأم أحمد رشفت رشفة وقالت:

– تسلم إيديك يا حاجة. قهوتك لها طعم تانى، المهم يا حاجة أنا عندى عريس لزبيدة.

– المحروس أحمد صغير وزهير أصغر منه.

– للحاج نضر.

اعتدلت أم زبيدة وهى تضع فنجان القهوة ثم قالت:

- أنت اتخبلتى يا ولية بتخطبى لجوزك؟

قالتها وهى تنزل بيدها فوق صدرها بقوة.

– بيحبها يا حاجة وهيه كمان بتحبه. وافقوا علشان النضر يا حبة عينى انسلى.

دهشت المرأة، ولكنها لم تجد مفرا من الموافقة بعد أن وافق الشيخ صدّيق الذى لم يكن الأمر بعيداً كل البعد عن تفكيره .لاحظ تعلق ابنته الوحيدة بتلميذه .تأكد له عفته وإخلاصه فى أكثر من موقف، ولما كان يعرف أن القلوب فى يد مقلب القلوب فقد وافق دون مناقشة. تمّ الإعداد للزفاف فى هدوء وسرعة بناءً على طلب النضر حتى لا يجرح مشاعر أم أحمد، رغم اعتراض الأم، فابنتها ليست عازبة ولا أرملة ومن حقها أن تفرح بعرسها قالت له :

- إيه يا نضر ده يعنى إيه البت تتجوز كده سكيتى .

- معلش يا حاجة بس علشان شعور أم أحمد .

- بس يا بنى متـأخـذنيش بنتى بنت بنوت مش عـازبة ولا أرملة ومينفعشى تتجوز كده .

وحين وجدت الشيخ صدّيق بكلامه الحاسم الذى لا يقبل مناقشة، يصر على عدم إقامة فرح لابنته صمتت وهى تكتم حزنها وغيظها؛ فكل أم تحلم بيوم زفاف ابنتها.

فى ليلة الحنة فوجئت بفايزة قادمة تسبقها الزغاريد . تحمل على رأسها صينية الحنّة المغروز فيها دستة شمع مولعة. ارتفع صوت زغرودتها وهى تسأل عن العروس حتى تضع لها الحنة بيديها. تجمعت الفتيات حول العروس وزوجة العريس تضع لها الحنة، ثم توزع الباقى على الفتيات اللاتى يحلمن بمثل هذا اليوم .

انتهت ليلة الحنة سعيدة على زبيدة، ولكنها كانت مؤلمة وموجعة على فايزة رغم تظاهرها بالفرح . لم تدخر فايزة جهداً فى إسعاد زوجها وعروسه.

خالها الطيب

صباح تحاول ضبط إيقاع البيت بعد موت الحاجة .بذلت كل جهدها لرعاية كل شيء، ولكن تبقى هناك نقطة ترعبها. لا تريد مشاكل مع تحية سلفتها قررت أن تكسبها لصفها .بعد وفاة الحاجة، ورحيل فايزة، واستقرار فاطمة فى بيت زوجها .لم يبق

سواهما. و تحية كانت مهيأة تماما لحالة السلام المعلن بين السلفتين بل كانت تبالغ فى ودها .. حتى أنها تذهب إليها يوم سوق الخميس. وتشترى لها ما تريد. الوحيدة من النساء هى تذهب إلى السوق لا يهمها شىء. وداد تشترى لصباح ما تريد، و تحية ترغب فى مجاملتها. تندهش صباح وتدعو الله مجتهدة أن يدوم هذا الرضا ... علاقتهما تتأرجح بين الرضا والغضب. حين ترضى تحية تصير محبة وطيبة، وحين تغضب الفريصة لا تسلم صباح ولا فاطمة من لسانها. الكل يتجنبها. لا أحد يدخل معها فى مواجهة أو يرد على شتائمها المباشرة وغير المباشرة، وهذا ما كان يزيد من غيظها. عانى زوجها كثيراً من لسانها، وأذاها الذى تلحقه بأخته وزوجة أخيه، مرات كثيرة أراد أن يطلقها ولكن الشيخ كان يمنعه حرصا على أبنائه.

اليوم للخبيز وصباح تستعد. نادت على وداد .ولما كان السلام والرضا يملآن قلب تحية، سمعت صوتها ينادى فى غبشة الفجر على صديقتها، حضر خالها الطيب وقررت أن تذهب لتساعدها ؛ قلبها أبيض كما الحليب تصفو كما الأطفال من أقل كلمة، دفعت الباب ودخلت وهى تقول:

– يا ولاد يا اللى هنا.

–تعالى يا أم محمد اتفضلى

-أنت هتخبزى ولا إيه؟ بسم الله ما شاء الله العجين فار.

– مستنية وداد

– قرصى يا ختى وناولينى

والحق يقال أن تحية كانت أحسن من يمسك بالمطرحة ، بتاوتها ولا ورقة السيجارة. تنفخ فيها تطير كما صرحت بذلك صباح مرات كثيرة أمام فاطمة ووداد. شمرت أكمامها وأزاحت الطرحة عن ضفائرها المتحنية وبدأت فى الخبيز. نادت صباح على سلوى أن تحضر جلبابا آخر لزوجة عمها، فرحت سلوى بوجود زوجة عمها .. تعشق طريقتها فى الحديث .. تحب السخرية الدائمة فى كلامها. وتتمنى أن تتصالح مع أمها طوال الوقت؛ ولهذا ميزات كثيرة أولا يسلمون جميعا من لسانها. ثانيا لا تمنع سامية وأخواتها من السهر فى المنزل الكبير وسماع حكايات الجد (جود). ثالثا سلوى تحب حكاياتها عن الحاج محمد الجنى الذى يركبها والعفاريت الذين يظهرون لها دوما وهى ذاهبة إلى سوق الاثنين لتبيع خيرات البهائم والطيور؛ تطالبها دوما بأن تحكى لها حكاية العفاريت الذين ضحكوا عليها وعملوا لها أرانب ولما فرحت وأمسكت بهم جميعا فى حجرها وجدتهم قد تحولوا إلى حجارة وطوب أحمر.. سألت عن فاطمة ولماذا لم تحضر لمساعدتها؛ فأخبرتها صباح أنها ستحضر بعد قليل فردت تحية:

– طبعا ناموسيتها كحلى. تلاقيها سهرانة طول الليل تستنى الصايع بتاعها .

– وحّدى الله يا أم محمد ربنا يصلحلها الحال

–ومين هيدافع عنها غيرك طول عمركم حبايب

– دى ولية غلبانة.هتعمل إيه؟

–وتعمل ليه مش بتعبى وتكبش من خير الرجالة وشقاهم وتوديله؟

– وماله .مش إخواتها؟

– ده فاضحنا فى البلد، بقى بت الشيخ صالح تفضل على ذمة الحرامى بتا ع النسوان ده؟!

سمعت صباح نحنحة الشيخ .أشارت لتحية بأن تصمت .أسرعت إليه تعد له الماء حتى يتوضأ وتجهز الإفطار للصغار الذين سيذهبون إلى مدارسهم.

جاءت فاطمة بعد قليل رفضت أن تدخل حجرة الخبيز،حتى لا تتعرض لسخرية زوجة أخيها. جلست على عتبة قاعة الشيخ (على) فى انتظار أن ينهى والدها صلاته. وأشار إليها أن تدخل. ارتمت فى حضنه وبكت أدرك أنها تشاجرت مع دياب. ربت على ظهرها وقال:

ـ الهدى من عند الله، ربنا عنده خير تصريف، اصبرى يا بنتى .

ـ أنا تعبت يابا كل يوم أقول هينصلح حاله مفيش فايدة .

فـايزة كل صـبـاح تضـع بسـتلة الماء السـاخن على الوابور،ثم تضـعها فى الحـمام، وتوقظ النضـر الذى لم يعد قـادرا على مفارقة سرير زبيدة:

– صباح الخير يا حاج

– صباح النور يا أم أحمد

– الحمام جاهز يا خويا

يدارى النضر الإحراج الواضح تماما . يرفع صـوته ويسـأل عن أحمـد وزهير، فـتخبـره المرأة بأنهمـا فى سابع نومـة. يقبل رأسـها ويدخل الحمام .

صـارت هذه عادتها كل يوم تجهز له الحمـام وتكتفى بقبلة على رأسها .

ليالٍ كثيرة انتظرته فى فراشها البارد. هيأت له نفسها. تمنت دخوله المشرق وهو يتنحنح ويعلو صوته بالذكر. وليال كثيرة لم يأت أكلت قلبها الغيرة . تذكرت صبرها عليه وعلى نزواته فى الصعيد . هل هى قادرة على أن تصبر عليه ثانية وهو يذوب عشقا فى أخرى ؟. تعرف أنه لن يستطيع مفارقتها ولو ليلة وحيدة. ولكنه لا يأتى. مازالت تنتظره فى سريرها وقلبها يهفو إلى دفئه وحضنه ولكنه لا يأتى

حين علم الشيخ صدّيق من زوجته بأن النضر لا يفارق حجرة زبيدة نصحه بالعدل بين زوجتيه.

دخل إلى حجرة فايزة وجدها كعروس تنتظر عريسها. حرك الصغيرين قليلا ثم جلس قبالتها وحين مد يديه إليها لا تعرف لماذا ارتعش جسدها. اعتدلت وجلست جواره. كان قلبها قد تألم بما يكفى. هى لا تعرف لماذا قررت أن تبقى ابنة عمه فقط وأم ولديه هكذا أخرجت الكلمات من فمها ودموعها تسيل. استراحت كثيرا وهى تحدد العلاقة أو على وجه الدقة أحست براحة حين أخبرته أنها لها البيت والأبناء ولا دخل لزبيدة فى شئونه، هى التى تدبر أمر كل شىء .

زبيدة اكتفت بالتزين وانتظاره. حاولت مرة أن تتدخل فى شئون البيت نظرت إليها أم أحمد نظرة أعادتها مرة أخرى إلى مكانها حيث كانت تجلس على أول درجة من درجات السلم.

وحين تشتكى له يطيب خاطرها. يرجوها ألا تتدخل مرة أخرى؛ فأم أحمد تعرف جيداً ماذا تصنع؛ القليل يصير فى يديها كثيرا، يتعجب أحيانا من كل هذا الخير الذى تقدمه للإخوان (فى خدمة الحسين) رغم أن دخله من بيع الكتب ليس بالكثير. أرغمت زبيدة على قبول هذا الوضع رغم أنها حلمت كثيرا ببيت يكون مملكتها، ولا يشاركها فيه أحد فما بالك (بضرة) تلغى وجودها، وتعتبرها

مخصصة فقط لمزاج الحاج. هو رغم كل هذه المنغصات يملأ قلبها فرحا حين يهل عليها بابتسامته الرائقة وعيونه المملوءة عطفا وحنانا .

اقترب موعد المولد والحاج نصر قلق وخائف، رغم علمه أن فايزة تعد لهذا اليوم عدته. تستعد له منذ اليوم التالى لانتهاء خدمة العام الفائت. تدخر طوال العام حتى تشرّف النضر أمام ضيوف آل البيت. أجلسها جواره بعد أن انتهى من التسبيح وقال لها:

– إيه يا أم أحمد ضيوف الحسين قرّبوا يهلّوا يا ترى عاملة حسابك؟

– ماتخفش يا خويا كل حاجة معمول حسابها. خيرك كتير ومبروك .

دخلت عليها أم زبيدة. وضعت بين يديها كل ما تحمل على رأسها وقالت لها:

– دى حاجة بسيطة من بعض خيرك علشان حبايب الحسين

– خير ربنا كتير وإحنا عاملين حسابنا

– وماله يا حبيبتى الحبايب كتير والبحر يحب الزيادة .

نادت فايزة على زبيدة وأمرتها بأن تدخل ما أحضرته أمها إلى حجرة الخزين، ولكنها قبلت يد أمها وجلست بجانبها، أمرتها أمها بإدخال ما أحضرته حرصاً على رضا أم أحمد. نفذت ما طلبته، ثم

عادت مسرعة لتهمس فى أذنها وعيون فايزة تتابعها. تبدو منشغلة فى تنقية الأرز المكوم أمامها فى الطشت لكنها تنظر بطرف عينها .. انطلقت زغرودة الأم مجلجلة. توقفت يد أم أحمد عن تنقية الأرز. قطعت المرأة زغرودتها :

– مبروك يا أم أحمد زبيدة هتجيب لك أخ لولادك اسم النبى حارسهم

– تقوم بالسلامة ببركة الحسين. مبروك يا زبيدة.

أحست فايزة كأن يدا عظيمة تضغط على رقبتها. تمنت أن تنشق الأرض وتبلعها، وهل يحتاج النضر لسبب ليزداد تعلقه بمن لا يترك حجرها؟ لقد تنازلت عنه منذ زمن بعيد. اكتفت بالبيت و الأبناء وتقديره الدائم لها وحب الإخوان والمريدين. من لها بنظرة حب من عيونه مقابل كل شئ؟ من يعطيها نظرة اشتهاء كالتى تراها فى عيونه حين تقبل عليه زبيدة؟ يا لهذا الشعور البغيض .هى التى تركته لها، لماذا لم تحارب من أجله،؟ لم يُشعرها مرة أنها امرأة تُشتهى. لماذا تغار اليوم وهى التى تركته لها ولغيرها من قبل؟ حاولت قهرغيرتها .اكتفت منه. منذ زمن بعيد بقوله (أم أحمد الخير والبركة) فلماذا الغيرة الآن؟ لماذا تتمنى موتها؟ هنأتها، وصمتت . نظرت إليها الحاجة نفيسة نظرة عطف فهى تعرف تماما كيف تشعر امرأة تعشق زوجها وابن عمها . مالت على ابنتها توصيها

بألا تبالغ فى الفرحة.

رأت فى نومها رجلا أقبل إليها من خلال ساتر نورانى أبيض. لم تتعرف عليه. أجلسها فى سريرها وظل يمسح على جسدها ويقرأ القرآن، وحين لمح دموعها تنساب مد يده التى تشع نورا ومسحها وانصرف، وهو يقول لها :

- أبو فاطمة بيدعيك لزيارته بس ضللى على عشك يا أم أحمد .

استيقظت وما زال صوته يرن فى أذنيها. وما تزال تشعر بلمسته الرقيقة على وجهها. رفعت فتيلة المصباح فانتبهت أنها ما تزال فى سريرها بجانب ولديها، ربتت على رأسيهما وأسندت رأسها بذراعها. يناديها ويتعجب من عدم استيقاظها حتى الآن. لم تسمعه ففتح عليها باب الحجرة وقال لها :

- إيه يا فايزة مش عوايدك.

جلس بجانبها على السرير، تمنت فى تلك اللحظة أن يمد يده ويلمسها .ماذا لو فعلتها هى ؟ لماذا لا تمد يدها وتشده إلى صدرها ؟ وللحق فكرت أن تفعلها. حلم الليلة الفائتة أعادها مرة أخرى. تراجعت يداها اللتان كانتا فى الطريق للإمساك به. تسللت من جانب الصغيرين حتى لا يستيقظا، وخرجت وهو يتبعها حائراً. جلست على درجة السلم تراقبه وهو يتوضأ وبعد أن فرغ سارت وراءه وفى يدها سجادة الصلاة. انتظرته حتى يفرغ من صلاته،

ولم تنتظر أن يكمل قراءة ورده الصباحى، وقصت عليه حلمها.
ابتسم ومد يديه قرب رأسها من وجهه وقبلها .

تركته يكمل قراءة ورده. تخرج من حجرة تدخل أخرى، تجهز كل شيء لخدمة المولد؛ . هى الوحيدة المسموح لها بالتعامل معهم تلبى طلباتهم؛ صارت لهم أختا أو أماً. لا حرج فى حديثها معهم، أما زبيدة فما تزال فى حجرتها تجلس على سريرها تتحسس بطنها وتتخيل يوما يكون لها بيت و تكون هى سيدته.

دخل محمد صبى المقهى - الذى سيصير فيما بعد رفيقاً لأحمد ابن الحاج نضر ويتزوج من فتاة تمت بصلة قرابة للحاجة فايزة - بصينية الشاى على النضر فى الدكان:

-أحلى شاى لحبايب سيدنا. إيه اللى جايبك بدرى؟

ابتسم النضر ووضع النقود على الصينية وهى ما تزال فى يد ه، كانت عادته من يوم أن عمل فى مكتبته المجاورة للمقهى أن يدفع قبل أن يمسك بكوب الشاى. انسحب محمد بعد أن وضع الشاى والماء على البنك ولم يستمع إلى إجابة السؤال الذى سأله.

أمسك بكوب الشاى وراح يحدق فى الكتب دون أن تستقر عيناه على شيء. كان يفكر فى زوجتيه. زبيدة حامل .أم أحمد بُشرت بزيارة الرسول. من لأم أحمد بمصاريف الحاج؟ تذكر النقود التى أحضرها لها الشيخ صالح، يعرف أنها أعطته جزءاً لشراء المكتبة

ولابد أنها تحتفظ بالباقى للحج .لا بد أن رؤياها التى منحها لها الله فى هذه الليلة بالذات لتبرد نار قلبها التى اشتعلت حين علمت أن زبيدة حامل .

أخرج كتاب دلائل الخيرات من الرف القريب منه . جلس يقرأ ويبتهل .

أيام كثيرة مضت وهى جالسة فى سريرها تنتظر دخوله عليها. ولكنه لم يأت. تعرف أنها هى التى قررت إبعاده عنها. هى التى تركته لها واكتفت بقبلة على الرأس. تعرف جيدا أنه لولا خجله من العائلة ما تزوجها. جاءت إلى منزلهم وهى بعد صغيرة هى اليتيمة ابنة عمه. كانت الحاجة دولت هى الأم التى حرمت منها . هو يكبرها بثلاثة عشر عاما على الأقل وهبها عمها له. الجميع يعرف أنها مخطوبة له. ورغم أنها لم تكن تعلم عن الخطوبة أو الحب شيئا إلا أنها بمرور الأيام أحبته. نامت بجوار فاطمة التى كانت تكبرها بثلاثة أعوام، زوجة عمها تعاملها كأم، بل ربما بالغت قليلا، حتى لا تتهم بالتفريق بينها وبين أولادها. حاولت دائما وضع الأعمال الثقيلة على ابنتها و الشيخ صالح يراقب دون كلام .رغم أن الحياة اختلفت كثيرا عن بيتها القديم ؛ فالكل يصحو بعد الفجر مباشرة. الكل يعمل ويتفانى، صارت جزءا منه. وصار حلمها الوحيد الذى تتطلع إليه هو أن يلتفت إليها النضر. أن يلحظ امتلاء خصرها . بروز

نهديها. كانت تقف أمام المرآة طويلا. تفرد شعرها وتمشطه وتقرص خديها. وتتعمد أن تقف فى محيط نظره. عيناه لا ترياها. هو يتجاهلها تماما .لم يلحظ أنها صارت امرأة يشتهيها الرجال و يخطبها الشباب، ولكن عمها يرد على من يتقدم لخطبتها. إنها عروس النضر، وهو يلوم أباه الذى يرفض تزويجها. ثم نزل على رغبة أبويه وتزوجها. ولكنه أهملها تماما. كانت تبكى لسلفتها صباح. تجلس معها. تعلمها كيف تغير موقف النضر منها. بذلت كل ما فى وسعها لتنال حبه واهتمامه .كان دائم الصد لها. كان عمها يلحظ انكسارها، فيطيب خاطرها.

حاول مرارا أن يجعلها تهتم بالبيت مثل صباح .أن تنال ثقة الحاجة وأن تتعلم منها، ولكنها لا همَّ لها إلا الحرص على رضا النضر. كانت أحيانا تغار من صباح .النضر كان يعمل لها خاطرا فى كل شىء؛ حين تدخل عليه حجرته، وهو يعنف فايزة لشكواها الدائمة منه يضع عينيه فى الأرض ويقول لها:

ـ اعملها إيه يا مرات أخويا. ماهية مش ساكتة عنى .

ـ معلش يا نضر ما انت عمايلك مترضيش مسلمين، وبعدين بص يا أخى لولادك باسم الله ما شاء الله ولدين زى الفل وانت مش واخد بالك منهم وسايبها طول النهار .

ـ يعنى اقعدلها ولا إيه ؟ وهوه عمر قاعدلكم انتى والبنات ما هو

طول النهار فى الغيط والليل فى القاعة مع أبوه وضيوفه .

- أديك انت قلت فى الغيط ومع أبوه وضيوفه لكن انت يا أخى مع مين؟ مع دياب واللى انت عارفهم أكتر مننا .الحنية بتطول العمر وتشيل الهم. حن عليها شوية غيرها مش أحسن منها

الشوق إلى الأحبة

عام كامل مر على موتها وهو يرعى أبناءه وكأنهم بعد صغار، يعتمد فى كل شيء على صباح فى المنزل، وعلى عمر فى الغيط، فى ليلة شتوية شديدة البرودة شعر برغبة فى النوم حيث كان جالساً يصلى، ولكن عينيه غفلتا ، فنام، أيقظه الشيخ على وأجلسه أمامه انتبه إليه صالح فمد الشيخ على يده بصرة ملفوفة بعناية ومعقود طرفها بخيط حريرى وقال له :

- بص يا صالح هذا الكيس لفايزة .

- فايزة بنت أخويا .

- نعم اعطه لها قل لها أبو فاطمة فى انتظارك .

- ليه فايزة بالذات.

- لا تتدخل فيما لا يعنيك فقط افعل ما آمرتك وقل لها(وبشر الصابرين) .

ربت على كتفه وانصرف .أفاق الشيخ صالح .وجد كيسا ملقى

فى حجره . تعجب وتذكر منامه. صلى على الحبيب المصطفى وفتحه وجده مملوءاً بالنقود. فى الصباح أخبر ابنه وقرر أن يسافر إلى النضر .

حين وصل إليه. كان واقفاً مع أحد زبائنه يحدثه عن كتاب يمسك به فلما رأى أباه لم يصدق عينه. احتضنه وقبل رأسه وأغلق المكتبة، وعاد به إلى المنزل كانت فايزة جالسة تخيط بعض الملابس وبجانبها زبيدة. حين رأت عمها يدخل عليها أسرعت إليه وألقت بنفسها فى حضنه وبكت كما لم تبك من قبل .زبيدة واقفة لا تعرف كيف تتصرف، صحيح النضر لم يتزوجها إلا برضا الحاج، وإصرار فايزة، ولكنها لا تعرف ماذا تفعل فى هذا الموقف غير المتوقع .لم تذهب إلى البلد، ولم يأت أحد فرحها. كل ما فعله النضر أنه نال الموافقة من أبيه على استحياء، انكمشت فى مكانها لا تبدى حركة وبعد أن هدأ ابنة أخيه المتشنجة التفت إليها وقال لها :

- أهلا يا بنتى.

- أهلا يا عمى .

أمسكت بيده وقبلتها ودخلت إلى حجرتها، شيعها بنظرات لا تشى برضا أو غضب فقط أمسك بيد ولده وابنة أخيه وأجلسهما وقص عليهما المنام وأعطاهما العطية الربانية، وفى الصباح غادر لدرجة أن عينه لم تقع على زبيدة حتى وفاته.

تحيرت أم أحمد ماذا تفعل فى النقود ولكن أول شىء فكرت فيه أن تعطى زوجها جزءاً من النقود حتى يشترى المكتبة من صاحبها، وادخرت الباقى للحج كما بشرها عمها وتلبية لدعوة أبى فاطمة.

دغل التوتة

كانت الأيام تمر و دياب لا يعرف بماذا يرد على حملات الحكومة التى لا تغيب شهرا. ما إن يُصلح حاله حتى يجد أمامه قوة من المخبرين وضباط المباحث يجرونه على المركز. بعد كل هجوم غاشم يجد نفسه مطالبا بالذهاب إلى البيت الكبير والوقوف أمام الحاج ليعاود قسمه أمامه ويعود بفاطمة مرة أخرى. لم يكن الشيخ صالح مقتنعا ببراءته. هو يرى ذلك فى عيونه. مرات كثيرة ثار فى وجه فاطمة وأخبرها بغضبه من أبيها قال لها :

ـ أبوكى مهما اعمل برضو بيبص لى بصة اتهام، مش عارف اعمل إيه علشان ارضيه .

ـ انت مالك ومال أبويا بس ؟ ماهو واقف جنبنا وبيساعدنا وعمره ما قصر معانا.

ـ كل مرة الحكومة تتهمنى بحاجة أروح له واحلف له إنى برىء ومفيش فايدة .

ـ ما هو معذور لما المأمور بيبعتله كل شوية، المخبرين بيقولوا له

على أخبارك عايزه يشكرك يعنى مش ناسيلك أبداً إنك كنت السبب فى مرواحى للنقطة وشتيمتى فاكر ولا أفكرك .؟

- وأنا ذنبى إيه أدينى بشتغل فى الأرض وسبت كل حاجة وحشة كانت مضايقاه. بس همه اللى مش سيبينى فى حالى .

ومن هنا قرر بعد سفر النضر أن يعاود سيرته الأولى طالما هو فى الأول والآخر مدان ومذنب. لسنوات خمس فرض الأتاوات على العمدة وأغنياء البلد، وأصبح لا يخاف من كلمات الشيخ. كان يعرف أن كثيراً من الناس ترفض أن تبلغ عنه إكراما لذكرى أبيه العطرة كما المسك. كان يستعد لسرقة مخازن العمدة الذى يراه ظالما وواكل حقوق الفلاحين فى بطنه الواسعة مثل بطن البحر اليوسفى .هذا هو المبرر الذى أصبح يسوقه دائما للشيخ وابنته؛ فهو لا يسرق إلا من يستحق السرقة، ودائما الشيخ يرد عليه أن السرقة حرام سواء كانت من الأغنياء أو الفقراء ولا يوجد ما يبررها .

علم العمدة بنيته من أحد أصدقائه الذى يكيد له لأنه تغلب عليه فى التحطيب وهدد دياباً تهديداً واضحاً وصريحاً أنه سيرد له هذا الموقف بعد أن أضحك عليه كل من حضر الواقعة ومن أجل ذلك ذهب إلى العمدة وأخبره بنية دياب فى سرقة مخازنه.

جهز العمدة بعض الرجال الأقوياء الذين استأجرهم لحماية المخازن أمرهم بإطلاق النار فوراً على كل من يشكون فيه، فقد رآها

فرصة للتخلص منه؛ لأنه أضاع كرامته وسط الفلاحين ولم يعد قادراً على السكوت عليه بعد أن مرمغ كرامته فى الأرض . اقترب دياب من المخازن. الرجال يطلقون النار. أضاءت السماء ووجد عبد الرحيم واقفا بينه وبين الرجال يمد كفه يحجب عنه الطلقات. أصابه الذهول حين رأى الشاب البركة. فجأة اختفى الضوء وعبد الرحيم، وعاد دياب إلى منزله يحكى لفاطمة عن وجود أخيها وكيف لم تؤثر فيه طلقات الرصاص. طمأنته وقرأت كل الرقى التى تحفظها على رأسه وذكرت له الجملة التى رددها والدها صباحا (الهدى من عند الله).

حين استيقظ صباحا بدا له ما حدث فى الليلة الفائتة حلما بعيدا، سأل فاطمة عنه، فابتسمت وطلبت منه أن يذهب للشيخ ليباركه. اغتسل وصلى وذهب للبيت الكبير فوجد عبد الرحيم يجلس تحت دغل التوتة الذى يتوسط ساحة البيت. انكب على يديه يقبلهما ويطيل النظر باحثا عن أثر للرصاص لم يجد. أراد أن يسأل عما حدث بالأمس، ولكنه تراجع خوفا ورهبا منه .ابتسم له عبد الرحيم وقال:

الله أكبر.

- ياه يا شيخ رحومة انت إيه بالظبط حيرتنى لدرجة إنى مش مصدق اللى حصل .

نظر عبد الرحيم إلى السماء ولم يعد موجودا بالنسبة لدياب على الأقل. حاول أن يحدثه عما فعله معه بالأمس، لكنه أبدا لم يطرف له طرف وهو يحدق فى السماء من بين أفرع التوتة التى كانت مثمرة ولا يظهر من خلالها إلا أضواء من بين فروعها الكثيفة.

بعدها ولأول مرة منذ سنوات واظب على الصلاة، وابتعد مرة أخرى عن صاحبيه اللذين باعه واحد منهما للعمدة ورجاله لمجرد أنه تغلب عليه فى التحطيب وأضحك الحاضرين. بل وصل به الأمر أنه فكر جدياً فى الانتقال إلى جوار النضر حيث يعيش هناك فى رعاية آل البيت، واظب على الذهاب إلى المنزل والجلوس مع الشيخ رحومة والشيخ صالح، بل أصبح من الذين يواظبون على حضرة ليلة الجمعة . حتى مقام الشيخ كان يذهب إليه ويساعد الحاجة نبوية تلك المرأة التى لم تعد قادرة على تنظيفه بعد أن كُفّ بصرها .

حين رآه واحد من أصدقائه القدامى داخل المسجد أسرع إلى الأصدقاء يخبرهم، وصار حديث جلسات المزاج لأيام كثيرة مقبلة، قصة الهداية التى نزلت عليه من السماء، وصار التهكم والسخرية يغلفان حديثهم عنه حين تدور رءوسهم من أثر الحشيش فمنهم من لم يصدق قصة هدايته التى نزلت عليه من السماء ومنهم من يردد بكرة يربى دقنه ويشيل سبحة ويذكر فى بيت الشيخ.

أما أعداؤه الكثيرون لما سمعوا بما حدث هان فى عيونهم

وتيقنوا الآن أنهم قادرون عليه.سنوات كثيرة دبروا الخطط حتى يوقعوه، ومرات أكثر كادوا له عند الحكومة والمأمور من خلال المخبرين الذين ينقلون الأخبار وإن كانت كاذبة. تربّصوا به وهو خارج من صلاة الفجر. أطلقوا عليه الرصاص أمام المسجد. أسرع الناس بنقله إلى منزل الشيخ القريب من المسجد، وصل الخبر إلى فاطمة فى لمح البصر؛ فجاءت فزعة صارخة والشيخ يكتم جرحه بقطعة من القماش حتى تأتى عربة الإسعاف، ولكن إرادة الله كانت أسرع. نظر إليها من خلال عيونه التى لا يكاد يفتحها. قبلت رأسه. غسلت وجهه بدموعها تحسس رأسها الذى انحسرت عنه الطرحة ومات دون أن يلفظ بكلمة أو حتى يطلب منها السماح ويوصيها بصغيريه .

حجرة زبيدة

كان النضر يرفض أن يقدم لنساء البيت أى طلب يطلب منه، وحين تطلبه صباح يخجل أن يرفض بعكس معاملته للفريصة . هو دائم الشجار معها ويتعمد استفزازها. تثور وتجرى على زوجها تشتكى منه فيضحك عنتر من تصرفاته ولا يعنفه، تزداد غضبا. ولما يمل من شجارها مع الجميع ولسانها الذى يتطاول على الكل يظل يضربها ولا يجرؤ أحد على الدخول عليه ويعلق الشيخ صالح بقوله:

(سيبوه يضربها علشان يهد حيلها ويكسر سمها).

كل هذا قرب بين السلفتين رغم غيرة فايزة من صباح أحيانا، فتضاعف صباح من حبها لها وعطفها عليها وصرحت لها مرات كثيرة أنها تعتبرها أختها، فكلتاهما وحيدة لا أخت لها وفى أكثر من مناسبة جلست مع النضر تحدثه عن حب فايزة له.

والآن حبه لزبيدة يزداد، لا هم لها إلا أن تتفنن فى التزين وإخفاء آثار الحمل والكلف الذى ملأ وجهها. تحاول طوال الوقت أن تخفى الآثار بالوصفات التى تأتى بها أمها من الحاج مصطفى العطار. وفايزة تلاحظ قلقها الدائم على جمالها،تتعمد السخرية منها وخاصة أمامه، وتواصل العناية بالمنزل والأبناء وتوفر وتدبر من أجل الخدمة والإخوان، وحين تسألها زبيدة كيف تدبر الأمور تضحك وتقول: (الرك ع البركة) اقترب موعد الحج، فاجأت النضر بما تدخره لذلك اليوم. امتلأت عيونه بالدموع وقلبه بالشوق، ولكنه أخفى قلقه على زبيدة التى اقترب موعد ولادتها. طمأنه الشيخ صديق عليها وشجعه على الذهاب لزيارة المصطفى .

سافر إلى الرسول بعد أن بعثا بأحمد وزهير إلى المنزل الكبير فى الصعيد؛ لأن زبيدة فى أيام ولادتها الأخيرة ولن تستطيع رعايتهما.

حانت لحظة ولادتها. بدأت تبكى، وتعض على مخدتها ولا يمل

لسانها من مناداته والصراخ. تضحك أم محمد الداية وتقول لها:

– دلوقتي بتصرخي وساعتها أكيد كنت بتزقططي. علشان تبطلي شقاوة أنت والحاج.

يزداد تشنج زبيدة ويزداد قلق أمها والداية تطمئنها، مضت ساعات دون أن ينفتح رحم زبيدة، فبدأ القلق يدب في قلب المرأة. أمسكت بالفوطة الموضوعة على حافة السرير ونشفت يديها. طلبت من أمها أن تنقلها إلى المستشفى. ارتجفت أم زبيدة ونادت على زوجها وسط صراخ ابنتها.

هناك في المستشفى أنجبت بنتين وقبل أن تغمض عيونها لمرة أخيرة، قالت لأمها التي كانت تمسك بيديها تدلكهما لتبعث فيهما الدفء:

– أمة إدى البنتين لأم أحمد وخليها هية تسميهم.

– ماتقوليش كده يا نن عين أمك. هتقومي ، وتربيهم وتفرحي بيهم زي ما فرحت بيكي

– مفيش وقت أنا عارفة. خلّي فايزة هية اللي تربيهم، لازم يتربوا وسط إخواتهم .

ماتت زبيدة وتركت حسرتها في قلب أمها .النضر يطوف حول الكعبة، ويلف ذراعيه حول جسد فايزة ليحميها من تدافع الطائفين، أحس بانقباض في صدره. تسمر في مكانه واستعاد ذهنه اللحظة

النورانية التى حلق فيها إلى أجواء سماوية وغيرت مسار حياته تماما. فى هذه اللحظات التى يذهل فيها الواحد عن نفسه لاحظت المرأة قلق زوجها. نصحته بأن يتمتع بلحظته فى هذا الجو الروحانى الذى يحيط بهما.

حين انتهت شعائر الحج وعاد النضر وفايزة، عرفا بموت زبيدة. ظل أياما وليالى كثيرة يلازم المسجد يجلس بجوار المقام. يمسك بالمصحف ويقرأ، وحين يتعب من القراءة يسند ظهره للمقام ويجلس صامتا تماما لا يكلم أحدا. يتوه فى الفراغ ثم يعاود القراءة. قلق عليه الشيخ صديق فقال له:

– يا بنى بيتك له عليك حقوق. ارحم نفسك شوية

– إيه يا شيخ صديق. دى زبيدة الغالية اللى ماتت.

– ماتغلاش ع اللى خالقها يا بنى

– طب وأنا عامل إيه؟. أنا بقرأ فى كتاب الله.

– ده مطلوب بس بيتك وعيالك وشغلك هتسيبهم لمين؟، برّد قلبك يا بنى النار هتاكل قلبك اللى عامر بذكر الله

كان قلب فايزة يتمزق من أجله ولكن ماذا تفعل والصغيرتان (نور) و(رحمة) كما أطلقت عليهما دائمتا البكاء، كانت تذيب لهما السكر فى الماء وتسقيهما ولا فائدة قالت لها أم زبيدة:

– بقولك إيه يا أم أحمد متجربى تقربيهم من صدرك؟ يمكن ربنا

يجريلهم رزقهم

- صلى ع النبى وده معقول؟ أحمد وزهير بقوا رجاله

- سبحانه يرزق النملة فى بطن الجبل والدودة فى الحجر

قربت فايزة الصغيرة (نور) من حلمة ثديها.الشفاه الصغيرة تداعب الحلمة التى نفرت. شعرت فايزة بدبيب يسرى فى صدرها، والحلمتان تنفران. الخدر يسرى فيهما.أوصالها ترتعش لم تصدق ما تشعر به لدرجة أنها أخرجت الحلمة وعصرتها للتأكد أنها تنزل لبناً بالفعل. تقبض الشفتان الملهفتان على حلمتها وتمتص فى سرعة ونهم أضحكت المرأتين الحزينتين. العرق يتصبب من جبينها الصغير وحين تشبع تصلى أم زبيدة على النبى وتسمى على الصغيرة وترقدها فى سريرها .تحضر لها الصغيرة (رحمة) التى لم تكف عن الصراخ حتى قربتها فايزة من صدرها الذى امتلأ. تكف الصغيرة عن البكاء وتقبض على الحلمة وتمتص بسرعة أنهكتها وجعلت صدرها الصغير يطلع وينزل والعرق يتصبب منها علقت أم زبيدة بأنها كمن يأكل فى آخر زاده لما شبعت نامت فأرقدتها جدتها بجانب أختها. جلست المرأتان كمن خرجتا من مباراة حامية. نظرة شكر وامتنان بادية على وجه فايزة. بدأت تفكر فى النضر وتدعو الله الذى أجرى اللبن فى الصدر الناشف أن يعيده إلى بيته.

ذهب إليه الشيخ صديق. وجده جالسا كما تركه بجانب المقام

وعيناه كأنهما تنظران إلى شىء لا يراه أحد غيره. لم يشعر به حين جلس بجانبه. وضع الشيخ يده على كتف النضر وقال له:

- شفت كرم ربك يا حاج

نظر إليه النضر نظرة حيادية تماما لا تدل على أى رغبة فى سماع ما يريد قوله .

- وحد الله يا نضر. ربنا كرمه كبير. بعت للعيلتين رزقهم .

ساعتها انتبه النضر :

-أم أحمد رضعتهم من صدرها .

- سبحانه قادر على كل شىء .

قام النضر واتجه إلى البيت دونما كلمة، وحين رأته امرأته ألقت بنفسها عليه وسحّت دموعها غزيرة كما لم تبك من قبل، هدأها وأجلسها على الكنبة ومن خلال دموعها بدأت تحكى له وتصف منظر الصغيرتين وهما ترضعان. تعجب من الحنان الذى يتدفق من صوتها واطمأن على صغيرتيه.

حياتها ماثلة أمام عينيها. كيف لم تشعر باليتم أبدا فى حضن عمها. قررت أن تلقى الصغيرتان نفس الرعاية التى لقيتها هى. لن تشعرهما يوما أنها زوجة أب خففت هذه المعاملة من آلام زوجها، كأنه يرى زوجته. حاول مرارا أن يعود لحجرتها. خجل من أمره هو الذى تركها طويلا . شعرت به طويلا قلقا ساهرا فى حجرته لا يمل

الصلاة والذكر نحل جسده. غارت عيناه. أشفقت عليه. سحبته من يده ووضعت المصحف الذى كان يقرأ فيه جانبا وهمست فى أذنه (إن لبدنك عليك حقا) أنفاسها حارة وملتهبة سار خلفها. أحكمت الغطاء حول جسد الصغيرتين ودخلت حجرة زبيدة وهو خلفها لم يقل شيئا دخلت تحت الغطاء وشدته إليها ونامت .

جاءت بالقوة، هذه المرأة

رفضت فاطمة العودة إلى بيت أبيها بعد قتل دياب.كما رفضت الزواج بعده رغم الجسم الفوار بالنضج الأنثوى الذى كان فى أوجه ورغم كثرة الطالبين .قصت شعرها الطويل وربطته بإيشارب أسود لم يتغير على مدار العمر.بعد شهور قليلة فكرت فى فتح دكان فى بيتها. لم يجد الشيخ مفرا من الموافقة بعد أن رأى تلك النظرة التى تشبه نظرته فى عينيها. ذكرته بحديث رسول الله الذى يقول إن تسعة أعشار الرزق فى التجارة.لم يكن يعلم أن فاطمة تمتلك كل هذه العزيمة والمقدرة على فعل ما فكرت فيه. تجيد المجادلة من أقصر الطرق. هب عمر واقفاً وهو يرفض اقتراحها ويفندها بنقاط سريعة وحاسمة. تركها وخرج لم تتفوه بكلمة واحدة أو تعترض على كل الأشياء التى قالها. فقط اتجهت بعيونها إلى صباح. طلبت منها أن تأتى معها.

بعد يومين فاجأ عمر أباه وهو يخرج ثلاث ورقات فئة العشر جنيهات ويعطيهم لأخته أمامه .أراد أن تستعين بهم على فتح الدكان. ضحك الشيخ وهو يرى نظرات النصر فى عيون ابنته. حاولت رفض المبلغ من يد أخيها .عمر يشعر بابتسامة أبيه. يفهم فرحه بقوة ابنته. يدارى كسوفه من تراجع موقفه ويخرج. كان يتحجج بكونها صغيرة لم تتعد الواحد والعشرين. لا تعرف أساليب التجارة أبدا كما إنها لم تخرج من بيتها إلا إلى حضن المرحوم .وراح يذكرها بمكانتهم فى البلدة . وأمام إصرارها ومساندة الشيخ، افتتحت الدكان وملأته بما يحتاجه أى بيت فى البلدة، لكن الشىء الذى غاب عن ذهنها هو بعد الدكان عن سرة البلدة.لم تمض أكثر من عامين حتى فاجأت أخاها عمر فى طلبها بيع البيت وشراء بيت فى وسط البلد. كان أصحابه قد قرروا الهجرة إلى العاصمة .افتتحت محلين فى البيت القريب من بيتهم . انتقلت معها الحاجة فردوس أم زوجها وصديقة أمها. ساعدتها فى تربية الطفلين. بمضى الأيام ارتسمت على وجهها تلك النظرة المحايدة والحكيمة .اكتست ملامحها بملامح الرجال التجار وظهر ذلك الزغب الخفيف تحت أنفها. نسيت تماماً كونها أنثى، ولما يطول شعرها الذهبى تقصه وتحبك الطرحة السوداء التى لا تزيدها إلا بهاءً. كثير من كبار البلد تقدم لخطبتها . كثير منهم تعهد برعاية أبنائها، ولكنها كانت

ترفض وترد بجملة وحيدة يدرك من ينظر فى عيونها وهى تقولها أنها مصممة عليها تماماً (أنا خلاص جربت حظى ومعنديش غير ولادى) ساعتها تنكسر نظرة التصميم فى عين عمر أو عنتر حسب الذى يحضر إليها عرض الزواج ويتركها ويخرج، والشيخ يتابعها ويدرك رفضها . وأبداً لم يفكر فى إجبارها على شىء، أصبحت تكثر من التشبه بطباع أبيها الشيخ. صممت على تعليم هدى وصالح الذى تركه أبوه لا يتجاوز العام. بعد وفاة الحاجة صارت صباح صندوق أحزانها وأفراحها القليلة. و أصبحت هى المسئولة عن كل احتياجات البيت الكبير من أشياء تباع . ترفض أخذ أى مقابل حتى من تحية زوجة أخيها التى غفرت لها كل زلاتها السابقة واللاحقة أيضا.

روحية محمد جلال

روحية تلك الفتاة الطويلة السمراء. فاتها قطارالزواج. كانت تحلم دوما بأن تتزوج وتعيش فى مصر أم الدنيا بعد أن ذهبت إليها وهى صغيرة مع والدها الذى كان يمسك بيدها . يطوف بها حول مقام الحسين. تنظر إلى النساء اللاتى يجلسن بجانب المقام. يهمسن له. يعدنه بالعطاء الكثير لأحبائه. إن هو حقق لهن ما يتمنين. جلست الصغيرة تنتظر أباها الذى وقف يصلى فى ركن قصى من

المسجد الواسع، كانت عيونها تجول فى القناديل المعلقة فى السقف وتتأمل تلك الرسوم والألوان البديعة التى لم ترها من قبل. تسللت من مكانها واتجهت للخارج .كانت الصغيرات فى سنها يرتدين الملابس الزاهية . يزين ضفائرهن بأشرطة ملونة ويمسكن بالبالونات يطيرنها ويهللن، تمنت فى تلك اللحظة أن تعيش هنا وبالتحديد .. خرج الرجل مذعوراً يبحث عن ابنته. وجدها واقفة تراقب الأطفال والنساء. ارتاح حين رآها. عنفها فى حب لأنها سيبت مفاصله وجعلت الدم يفر من عروقه. عادت مع أبيها. ظلت تحلم بأن تقيم فى هذه المدينة التى امتلكت عليها روحها. ولما توفى والدها ظلت ترفض كل من يتقدم إليها. تعتقد أنه جاء طمعاً فى الفدانين اللذين تركهما لها والدها، وفى لحظة أحست أن حلمها اقترب منها، بل كادت أن تمسك به بين يديها حين جاءت فايزة زوجة النضر، صديقتها القديمة وجلست معها تحدثها عن حلمها بالسفر إلى مصر والزواج فيها أو حتى الاستقرار فيها، طلبت منها أن تحضر إليها فى مولد الحسين القادم. اقترب المولد ذهبت إلى عمر. طلبت منه أن ترافق النساء فى رحلة الذهاب للمولد. تردد عمر قليلا . هى امرأة وحيدة ولا يصح لها أن ترافقهم إلى القاهرة وأمام إلحاح صباح التى توسطت لديه أن يصحبها ولا يكسر بخاطرها، وافق وهناك عرفتها الحاجة فايزة على محمد الذى لم يعد مجرد صبى يقدم القهوة لزبائنه، بل صار معلما

يلف الشال الحرير على رأسه. ويصيح فى الصبى الجديد أن يأتى له بالشيشة .سيصبح ذات يوم صاحب دكان كبير للعلافة والعطارة.
فى نهاية الشارع الطويل الذى يفصل الدويقة عن منشية ناصر بعد أن تبيع روحية محمد جلال الفدانين الذين ورثتهما عن أبيها وتشترى لها شقة صغيرة تحرص على فرشها بالسجاد والموكيت كما تحرص على تزيينها وشراء كل ما يلزمها من أشياء اشترتها من الغورية و الموسكى مثل بنات مصر، كما حرصت على شراء دكان العلافة لزوجها الذى صار فيما بعد الحاج محمد والذى يصغرها بعشر سنوات على الأقل.

كان يفرك القمح للطيور

فى الوقت الذى يعود فيه رب أى أسرة سعيدة إلى أبنائه فى بداية الليل. يجول بنظره فى المكان يتفقد صغاره . يضع أكياس الفاكهة التى لابد محمل بها من أجلهم . وفى الوقت الذى تطيل فيه البنات النظر إلى النجوم التى تتلألأ والقمر الذى يبين ويختفى خلف السحاب وتبحث عن أحلامها فى صفحة هذا القمر الذى لا يطول اختفاؤه وتخفق القلوب التى لاتزال بعد صغيرة ولكنها تتشوّف لفارس لابد سيأتى على حصان حتماً سيكون أبيض. فى نفس هذا الوقت الذى تقف فيه أى أم أمام موقدها تطمئن على نضج الطعام،

وهى سعيدة وراضية كل الرضا عن حصاد اليوم غير عابئة بالمتاعب التى عانتها طوال النهار به، يمتلئ قلبها فخرا لأنها أرضت الجميع.فى نفس هذا الوقت ينادى عبد الموجود على ابن خالته:

– يا صالح. يا شيخ.

– أيوه يا مرحب يا مرحب بالحبايب. اتفضل

يبتسم ابتسامة شغوفة فى وجه ابن خالته ويجره من يده فى تصميم من يأتى إليه ضيف عزيز. كان الشيخ يفرح كثيراً به. تعود إليه حيويته وشبابه كأنهما مازالا بالأمس القريب يعيشان طفولتهما السعيدة ويتنافسان على لفت انتباه ابنة خالتهما التى تصغرهما بعامين فقط. ينادى على حفيدته سلوى أن تحضر الطبلية، فتقفز من بين فخذى صباح التى كانت تضفّر لها شعرها، تجرى سعيدة وتترك أمها ممسكة بشرائطها الحريرية متعجبة من لهفة هذه البنت على سماع الحكايات وتقول لها :

ـ الجد جود جه، مخك بيطير منك لما بتسمعى صوته، بالراحة على نفسك هوه قاعد معانا للعشاء .

يجلس عبد الموجود بجانب الشيخ الذى لا يفوته أن يلاحظ التماع عيون الحاجة دولت وهى تمد يدها المغطاة بطرف طرحتها وترحب بابن خالتها. يعجب من نفسه كيف لا يكدره يقينه من حب عبد الموجود للحاجة ذلك الحب الذى جعله يبقى طوال هذه السنين

دون زواج بعد أن فضلت عليه الشيخ. وللحق ظلت الحاجة تعامله كما ينبغى لامرأة فى وضعها أن تعامل ابن خالتها ورفيق طفولتها. كانت ترعاه. تبعث إليه بابنتها فاطمة تقضى له احتياجاته ولم تنس ولو مرة وحيدة أن تبعث إليه بطعامه. حين تنهى إعداد الطعام كان أول صحن يغرف من الطعام له، فتضحك صباح وتقول لها فى خبث تحبه الحاجة :

ـ صحن ابن الخالة من وش الحلة.

ـ ترد عليها الحاجة فى ود .. طبعاً وهوه فيه أغلى من ابن الخالة .

يتقافز الصغار فرحا ويلتفون حول الطبلية وقبل أن يبدأ فى النقر عليها يفسح مكانا لعبد الرحيم الذى يجلس بجانبه .يهتز فرحا ويزداد حماسا حين ينتصر أبو زيد فى كل موقف. يصفق عبد الرحيم كما الأطفال فيبتسم عبد الموجود وينتقل فى حكيه إلى قصص الحب البرئ التى تمتلئ بها الحكايات وعلى لسان أبطاله يبث ابنة خالته حبه وأشواقه. غيباته تطول عن المنزل الكبير ولكنه يعود دائما مشتاقاً ملهوفاً، مازال ينقر بأصابعه وينغم صوته ويحمله بالانفعالات اللازمة لكل من ينطق بلسانهم، وفى غمرة اندماجه تسأله سامية ابنة عنتر :

ـ جدى هوه حقيقى أبوزيد كان موجود حقيقى ولا ده خيال زى

ما محمد أخويا بيقول ؟

ـ طبعاً كان موجود. ليه ؟

ـ مدرس التاريخ مش بيجيب سيرته .

ـ مدرس التاريخ مش بيدرسلك الزمن اللى كان فيه أبوزيد .

تعاجلها سلوى فخورة :

ـ أنا سألته قال إن ده كان فى زمن الفاطميين وإحنا بندرس زمن الفراعنة يبقى هيجيب سيرته إزاى ؟

ينشغل الشيخ عن الحوار التاريخى الدائر بين الصغار والجد جود ويطيل النظر إلى عيون الحاجة التى تجلس على عتبة القاعة البحرية وتبتسم راضية، رغم ثقته فيها وفى عفتها إلا أنه دائما ما يحاول التلصص على نظراتها لابن خالتها، الذى وهب نفسه للعائلة ولم يفكر يوماً فى الزواج بامرأة أخرى رغم علمه بحب فردوس القديم له.. هو يدرك مشاعر عبد الموجود نحوها ولكنه لم يغضب يوما؛ فهى تحرص كل الحرص على إرضائه. أقامت له منزلا عامرا بالخير والحب والأحفاد. دخلت منزله وهى صبية لم تتعد الثالثة عشر من عمرها. مضى نصف قرن من الزمان .لم تغضبه يوما أو تقصّر فى أمر من أموره. دائما مُدبّرة ونشيطة ومثابرة على تحقيق ما يجعله يرفع رأسه بين الإخوان ورفاق الطريق.

حين توفيت الحاجة كان الشيخ واقفا كالجبل بين أبنائه. أقبل

عبد الموجود نظر إليه نظرة لم يفهم مغزاها وقال له جملة وحيدة وانصرف.

- خدتها حية وميتة.

انصرف دون أن يشيّع جنازتها أو يقف بجانب ابن خالته وأبنائه. ناداه عمر والدموع فى عينيه:

- تعال يا خال رايح فين؟

وقف ونظر إلى عمر وقال بصوت دامع:

- خلاص ما عادت الدنيا ينبكى عليها.وما عاد لى حاجة وسطيكم.

ثم تحرك خطوتين قبل أن يستمع إلى صوت الشيخ قائلا:

- تعال يا جود ماتمشيش دلوقتى ماينفعش .

التفت مره ثانية نقل نظراته بين الشيخ وجدران المنزل التى شعر بها تبكى لرحيل دولت وقال والدموع تتساقط من عيونه:

- خلاص يا صالح مش هينفع آجى تانى هنا .

اختفى عبد الموجود من البلد ولا أحد يعرف عنه شيئا، وبين الحين والآخر يقسم فلاح أنه رآه فى المقابر يسقى الزرع، ويتسلق النخل يقطع الجريد الأخضر. يوزعه على القبور، ويختص قبرها بالجريد الأخضر وأعواد الريحان التى يداوم على رعايتها. وآخر يقسم أنه رآه فى حقول القمح يقطف السبلات التى لم تجف بعد،

ويفركها فى يده و يبدرها للطيور التى لا يعرف أحد كيف تتجمع بكل هذه الأعداد فى لحظات، وهو يداوم على فرك القمح و يبدره يميناً وشمالاً، ويقسم مراكبى عجوز أنه رآه يقفز إلى النهر كشاب فى العشرين لينقذ طفلاً صغيراً أفلت من حجر أمه فى عز القيالة، وقفز إلى الماء ليطفئ نار الصيف المحتدم هو وأقرانه الصغار الذين بدءوا يصرخون حين وجدوه يغطس ويقب ولا أحد ينقذه وإذا بعبد الموجود يأتى لا أحد يعلم من أين أتى فى تلك اللحظة ويقفز إلى النهر لينقذ الصغير .

شهور مضت ولا يسمع عنه أحد شيئا سوى ما يرويه الناس من أفعال لا يعلق عليها أحد سوى الصغار الذين دائما يتساءلون عن رجوع جدهم (جُود) .

والآن الشيخ جالساً فى القاعة البحرية يكمل ورده الليلى. يسمع تصايح الصغار وترحيب صباح بزائر لم يتبين اسمه. أراد الخروج للترحيب بالضيف . لعله أحد الرفاق جاء من سفر طويل. شعر بالرضا لوجود ضيف سيؤنس ليلته. وفضّل البقاء حتى يُنهى ورده فعُمَر بالخارج ولا بد سيرحّب به ويدخله، لم يسمع بعدها صوت عمر أو صباح. سلم عليه عمر. احتضنه عبد الموجود دون كلمه ونظر إلى صباح وكأنه لا يراها ولما أسرعت إليه ميرفت لتلقى بنفسها عليه وتهلل

ـ جدى جود جه، إزيك يا جدى، كنت فين ؟

تركها تمسك بالفراغ وسأل عمر :

ـ فين أبوك يا عمر ؟

ـ إزى حالك يا خال غيبتك طالت .

ـ كله بأوان يا عمر، فين أبوك يا بنى ؟

ـ فى القاعة بيصلى يا خال إدخله .

لم ينتبه صالح إلى الواقف بطوله فى باب القاعة. يتصاعد ظله على الجدار فى ضوء القنديل، ولكنه انتبه على صوت بكاء ونشيج مكتوم. نظر بذهول لذلك الذى يبكى فى صمت وحاول التعرف عليه. لم يتبينه فى شَعره الثائر ولحيته الكثيفة. أطال النظر لدقائق ولما لم يعرفه قرب المصباح المعلق فى سقف الحجرة من وجهه ثم احتضنه بيد و الأخرى تمسك بالمصباح، قبل وجهه ورأسه وبكى، هو الذى ظل واقفا كالجبل ساعة رحيلها. لم تبلل لحيته ولو دمعة وحيدة، الآن يبكى كما الأطفال رغم أنه ظل متماسكاً ساعة وفاتها حتى أن من يراه ساعتها يقسم كأن من ماتت ليست زوجته ورفيقة عمره. ألقى عبد الموجود بجسده المتعب فى حضن ابن خالته واستكان تماما، ولم يعد يسمع نشيجه المكتوم.

صباح تزداد شبهاً بالحاجة دولت، صارت أماً لكل من يدخل المنزل. حتى تحية تعلمت كيف تمتص غضبها . تتجنب لسانها الحاد. صارت تتبع الخطوات التى رسمتها لها فى رؤياها ليلة موتها، نفس الرؤيا التى رآها الشيخ صالح وما نقص فى رؤية الشيخ اكتمل فى رؤية صباح. توطدت العلاقة بينها وبين عمرة الدار. صارت تفعل لها كل الطقوس اللازمة لجعل العلاقة يشوبها الرضا والسلام؛ حتى لا تؤذى أحداً من العائلة ؛ فالكل لن ينسى أذاها الذى ألحقته بعبد الرحيم رغم حبها للحاجة؛ صباح تحذر أبناءها دوما من التطاول عليها. لا تترك زير الماء دون كوب. حين تشعل النار فى الفرن تسمى الله وتقول (لموا عيالكم النار جايالكم). تحرص على ألا يلقى أحد الماء الساخن فى الحمام. وهى توقظها فى الفجر لتصلى. تحمى لها المتارد لتحلب فيها البهائم. سلوى التى كانت تسأل دائما جدتها عن الصوت الذى تسمعه يناديها كبرت الآن وما عادت تسأل عن الصوت الذى تسمعه يوقظ أمها .

عبد الرحيم ارتبط أيضا بصباح ارتباطه بأمه. صارت تعتنى به مثلما كانت تفعل الحاجة. استيقظ هذا الصباح نشيطا ومرحا على غير العادة، تفاءلت صباح خيرا بابتسامته. وضعت له الماء الساخن والملابس النظيفة فى الحمام، وألحت عليه أن يدخل. وافقها ودخل

وبعد الإفطار ذهب مع عمر إلى الغيط القبلى ليساعده فى الرى. حين عاد فى المساء جلس بجانبها وهى تعد العشاء وحكى لها حلما رآه حين نام فى القيالة تحت الجميزة. ابتسمت له وقالت:

- .خير يا عبد الرحيم

- تعرفى يا مرات أخويا أنا شفت أمة الحاجة

- شفتها إزاى؟!

- كانت قاعدة تحت شجرة تفاح وبتقطف وتوزع على عيال كتير. لما شافتنى حبتنى فى خدى وملتلى حجرى تفاح حلو قوى

- خير يا عبده دى نفسها تطمن عليك وعطية الميت حلوة .

- بس خدت منى أبويا الحاج وسبونى ومشيوا .ولما جريت وراهم صمموا يرجعونى .

حين نطق بجملته أحست بسيخ محمى يمر من فوق القلب .كادت أن تنط من فوق الأرض من الألم وبهدوء وخوف قالت له وهى تطمئنه وهى غير مطمئنة على الإطلاق:

- ماتخفش هيه عايزاك كويس وتساعد عمر فى الغيط .

-ما أنا بساعده. تعرفى أنا اللى حولت الميه فى الغيط كله. وكمان كنت بلف ورا البقرة واضربها علشان تطلع ميه كتير.

استمعت إلى كلام الشيخ رحومة وهى ذاهلة ولا تعرف معنى للحروف التى ترن فى أذنيها ولم تجد رداً حين سكت الشيخ الذى

مده يده وهزها دون كلمة فقالت:

– ربنا يبارك فيك يا عبده .

– تعرفى السمك ده كله أنا اللى صدته لوحدى. كان فيه قرموط كبير فى حوض الساقية كنت هصيده زى اللى صدناه زمان أنا والنضر وعمر فاكراه. بس يا خسارة هرب منى بسرعة

لم ينتظر تعليقها على كلامه. تركها، ودخل حجرة الحاجة النظيفة دائما .ألقى بجسده على السرير وتاه فى عالم لا تتخيله صباح التى داخلها القلق والخوف العظيم من حلمه؛ فهى تراه بريئا كما الأطفال .ما يراه يُعَد رؤيا لا بد ستتحقق .حين يأخذ الميت أحد الأحباء فهذه إشارة إلى وفاته قريباً. أخذت تفكر فى موت الحاج الذى رأته كارثة بكل المقاييس، فهو عماد المنزل وملاذ الضعيف، ومساعد المحتاج .اطمأنت على أمور المنزل، وأطعمت الأطفال. تركت الشيخ يصلى فى القاعة البحرية، وصعدت حجرتها. صارحت عمر بمخاوفها فقال لها:

ـ صلى على النبى وسيبك من الكلام ده، دى وسوسة شيطان .

ـ لا يا عمر عبد الرحيم بتاع ربنا والشيطان ملوش دعوة بأحلامه. دى أكيد رؤيا .

ـ خلتيها أكيد كمان، بطلى أنا مش ناقص عقل النسوان الفاضى.

- صدقنى قلبى قالى .

- يا ستى الرؤيا بتكون قبل الفجر مش فى عزالقيالة زى ما رحومة بيقول وبعدين وإن حصل هنحوش أمررينا؟

نامت وهى غير مقتنعة لأن الجميع يرى عبد الرحيم شبه ولى من أولياء الله. وما يراه إشارة للأحباء لا بد أن تؤخذ مأخذ الجد .

فى الصباح انشغلت بسلوى وميرفت الذاهبتين إلى الامتحان فى المركز .نادت على محمد ابنها الصغير أن يذهب إلى المقدس حنا، سوف تركبان معه ويوصلهما لمدرسة المركز. عمر لا يطمئن عليهما إلا إذا ركبا مع المقدس الذى يناديه كل أحفاد الشيخ صالح بعمى حنا، وبعدها أنستها أمور المنزل رؤيا الأمس التى شغلت فكرها ولم تنم بسببها طوال الليل . لم تلحظ تأخر الشيخ فى النوم حتى فرشت الشمس وسط الدار. بعد خروج عمر وعبد الرحيم إلى الغيط. قررت أن توقظه، ولكنها سمعت الباب يدق، فتراجعت مندهشة من زائر الصباح الباكر هذا. كانت فاطمة تمسك بصالح الصغير من ذراعه . سحبت طفلها سريعا من فتحت الباب حتى كاد يقع بينهما وسألت فى لهفة:

-أبويا فين يا صباح؟

- نايم. ما لك يا بت؟ بعدين ابعدى الواد من فتحة الباب الوقوف فى الأعتاب وحش .

– لغاية دلوقتى ؟ ده عمره ما عملها .

تركتها تكمل كلامها واندفعت إلى حجرته. نادت عليه فلم يرد. صباح واقفة تمسك بيد الصغير الذى تيتم بدرى وقلبها يكاد يفط من صدرها. صرخت فاطمة. جسد والدها بارد. وضعت أذنها على صدره؛ فلم تسمع نفسه. ازداد صراخها. صارت تلطم خدودها وتمزق ملابسها ومن خلال صوتها المكتوم كانت تردد

ـ كنت عارفة لما ضرسى الكبير انكسر يابا .

تهالكت صباح جالسة على عتبة الباب والصغير فى حجرها، ودموعها تغطى وجهها وهى تقول:

ـ ياضهرك اللى انكسر يا عمر. الحمل تقيل يا خويا .هتعمل إيه من غيره؟ حلم رحومة يابا.

ـ حلم إيه يا صباح أنا برضو إمبارح شفت ضرسى الكبير انكسر .حسيت إن فيه مصيبة جاية أول ما فتحت عينيا قلت أبويا .

كان أول من دفع الباب ودخل بعد صراخ فاطمة، وداد وبعدها تحية التى شاركت فاطمة فى الصراخ والندب؛ فحماها وزوج خالتها طالما دافع عنها ومنع عنتر من ضربها، وخاصة بعد رحيل خالتها الحاجة دولت.

كانت صباح لا تشارك النساء فى الصراخ والعويل؛ فالمنزل امتلأ بالنساء ولا بد أن تعتنى بكل الأمور، وتبعث من يخبر الرجال

فى الغيط. كانت تلف حجرات المنزل تغلقها وهى تبكى. وتردد من خلال بكائها:

– لهفى عليك يا خويا. يا ضهرك اللى انكسر يا عمر.

كان الخبر قد وصل إلى الرجال فى الغيط بعد دقائق من وفاته؛ فموت الشيخ صالح حدث غير عادى فى البلد. تناقله الجميع بين مصدق ومكذب فمن يقول :

ـ أنا لسه مصلى وراه العشاء .

ومن يقول :

ـ لسه مسلم على وهوه راجع من صلاة الفجر.

وأخرى تقول :

ـ ده لسه مدينى مصاريف اليتامى بالليل بعد العشاء.

وصل الخبر إلى أبنائه تركوا أعمالهم وعادوا بسرعة إلى المنزل. كان أول ما فعل عمر كعادته فى مثل هذه الظروف أن يدخل النساء إلى الحجرات الخلفية للمنزل .يهدد من تندب أو تصرخ وخاصة تحية وفاطمة. وتفرغ هو وأخواه للإعداد للدفن، واستقبال الإخوان الذين سيحضرون من جميع الأنحاء لوداع والدهم؛ فالأخوان كانوا يعتبرونه الأب الروحى لهم جميعاً نظراً لنسبه الشريف إلى آل البيت، ولأنه أكبرهم سناً، ومنزله مفتوح لهم دائماً.

فى هذا الموقف الذى لا يعرف فيه الواحد ماذا سيفعل فى

اللحظة المقبلة. فى نفس الوقت الذى تذهل الأم عن رضيعها والذى يشفق فيه أشد الناس قسوة حين ينظر إلى وجه عمر وعنتر وعبد الرحيم فى هذا الوقت شق عبد الموجود الجمع المحتشد ودخل على ابن خالته، حاول عنتر منعه إشفاقا عليه . عمر أدخله. كان لابد من وداع أخير بين رجلين جمعتهما الحياة على حب نفس المرأة. أحدهما فاز بها والآخر اكتفى برعايتها وإشفاقها عليه. لم يتحدثا أبداً عن هذا الحب. المرة الوحيدة التى حدثه فيها بهذا الأمر ساعة وفاة الحاجة قال له: (خدتها حية وميتة) وانصرف وسط ذهول الأبناء الذين لم يخطر لهم على بال مثل هذا الأمر،دخل عليه حجرته. كشف الغطاء عن وجهه قال له:

– تعرف أنت فزت بيها

–........

–بلغها سلامى

–........

– جنة من غيركم ما تنداس

–........

ـ يا رب اجمعنى بيهم، أقولك على حاجة كتير اتمنيتها ومرات أكتر لمت نفسى بس اللى كان مصبرنى إنى عمرى ماخذلتك ولا بصتلها بصة وحشة .

- ....

- تفتكر قدام اللى لا يغفل ولا ينام هتسامحنى ولا هتطالب بالقصاص منى على ذنب أنا معملتوش، القلوب سرها عند ربنا وأنا مكنتش أقدر أمنع قلبى .وبعدين أنا حبيتها بس وعمرى ما عملتوش حاجة تغضب ربنا لا من وراك ولا قدامك.

مال عليه قبله فى خده وخرج. كان الرجال قد رصوا الكنب والدكك فى ساحة الدار ؛ إلى أن يحضروا الصوان من المركز؛ فالعزاء سيكون مهيباً وسيحضر إليه الرفاق من شتى أنحاء المحروسة ولابد من صوان كبير يليق به. لم يمش عبد الموجود بضع خطوات تاركا خلفه ابن خالته فى حجرته حتى استند إلى التوتة التى تتوسط الدار، أسرع إليه عمر . سقط بين يديه ميتاً هكذا ببساطة دون أن يلفظ بكلمة أو يشير بإشارة. وصل الخبر إلى النساء الجالسات يبكين فى صمت خوفا من عمر الذى أقسم عليهن بأنه من يسمع صوتها تعدد سيضربها دون رحمة. حين وصل إليهن الخبر انتفضت تحية واقفة وبدأت تعدد بصوتها الذى علا حتى وصل إلى مسامع عمر الذى لم يجرؤ أن يدخل إليهن ويوبخهن، والخطب أكبر من طاقتهن وتهديده.

كونى شديدة واتحزمى بحزام

وحلقى ع النعش من قدام

التفت النساء حولها وهى تضرب صدرها بيديها القويتين وفاطمة تقف قبالتها فى وسط حلقة النساء وترد عليها:

مشيع يقول سرير من بيتى

وأربع مساند ولحافهم زيتى

مشيع يقول سرير من عندى

وأربع مساند ولحافهم وردى

كانت صباح تمسك ابن فاطمة وتبكى . تنظر بين الحين والآخر ناحية عمر الذى تخشى حضوره فى أية لحظة ليعنفهن ويمنعهن من الندب، ردت تحية على فاطمة التى أنهت عدودتها وأعقبتها بصراخ عنيف وباقى النساء ورائها:

قدام بيته ساقية وجنينة

والعبيد يسووا غدا العيلة

قدام بيته ساقية نعارة

والعبيد يسووا غدا الرجالة .

حمل عمر جسد خاله الذى هاله مدى خفته كأنه يحمل بين يديه طفلاً صغيراً وأرقده بجانب الشيخ صالح، وخرج يضرب كفا على كف، ويردد لا إله إلا الله. نادى على محمد ابن أخيه عنتر وأمره أن يسرع بإحضار المغسل. انسل عبد الرحيم من الجمع وأمسك المصحف وجلس على رأس أبيه وخاله (جود) كما كان يحلو له أن

يناديه، وأخذ يقرأ لهم سورة " يس بعد أن انتهى خرج إلى الرجال المرصوصين فى ساحة الدار، نادى عمر قائلا:

- يا عمر أسكت هؤلاء النسوة.

ذهل الجميع من طريقة كلام عبد الرحيم الصامت دائما، الذاهل معظم الوقت فالتفت عمر إلى عنتر والنضر الذى حضر بمجرد وصول الخبر إليه من خلال تليفون جاره الحاج محمد العطار، ولم يعلق أحد على طريقة حديث عبد الرحيم .

كان عبد الرحيم يعلم أن روح أبيه تحلق فى عالم الملكوت، وترشف من رحيق المحبة الإلهية. فلقد بلغت الروح الذروة العليا، وانتقلت إلى المقام الأسمى رأى روحه تطير ومعها روح خاله (جود) فأراد أن يسكت أصوات النساء التى تعوقها عن مواصلة الطيران إلى حيث المقام العلى. كان يعرف للمرة الأولى فى حياته أن الموقف يستحق الفرح لا الحزن.

كان صوت عبد الرحيم يشبه إلى حد بعيد صوت الشيخ صالح، بل كأنه هو، وهذا ما زاد من ذهول عمر الذى هده الهم والحزن. هو لا يسمع صوت عبد الرحيم بل صوت أبيه. عبد الرحيم يفيق بعد أكثر من عشرين عاما قضاها ذاهلا على هامش الحياة. لا يشارك فيها إلا قليلا. لأول مرة يتحدث بهذه اللهجة. لأول مرة يعطى أمرا لأحد. خرج عمر من ذهوله واتجه إلى النساء اللاتى يندبن ويعددن

مناقب الكرم والشجاعة للراحلين العزيزين قال لهن بصوته الذى يملؤه الحزن والتصميم ووجه حديثه إلى فاطمة وتحية وفايزة :

ـ والله اللى هسمع صوتها هضربها،

ثم وجه كلامه للنساء اللاتى قدمن للعزاء :

ـ وانتوا ياستى انتى وهيه اللى هتبكى تبكى فى بيتها . كل واحدة منكوا بتبكى ميتينها فارحمونا .

. وضعت كل واحدة طرحتها على وجهها وخرجت،وهن يمصمصن الشفاه ويتعجبن من أبناء الشيخ وقالت إحداهن :

ـ هوه قليل علشان تعملوا كده، هوه رخيص عليكم للدرجة دى ؟ ده الشيخ صالح وغلاوته فى قلوبنا كلنا .

ونساء المنزل الكبير يجلسن تسح عيونهن فى صمت. ينظرن للنساء الخارجات فى ذهول من تصرفات عمر ولا يعلقن فقط يبكين فى صمت .

حضر المغسل ليعد الراحلين للدفن. دخل معه عبد الرحيم هو الذى قام بتغسيلهما. ثم خرج لعمر يخبره أنه لا بد أن يدفنهما معا، هكذا اتحدت الأرواح فيجب كذلك أن تتحد الأجساد.

بعد الدفن تحول مأتم الشيخ صالح من البكاء والعويل وتعديد المناقب على ألسنة النساء إلى حلقة ذكر أقيمت فى الصوان الذى بالغ عنتر فى أن يكون كبيراً مهيباً ويضم عدداً كبيراً من الكراسى

حتى يليق بمكانة والده. وبالطبع سيتحمل هو كل التكاليف فهو أكبر الأبناء سناً وأيسرهم حالاً. ولكن الحقيقة هى أن فاطمة هى التى صممت على دفع كل المصاريف ولم يجد الرجال أخوتها بما فيهم الحاج نضر مفرا من الموافقة بعد أن هددتهم إنها لن تدخل لهم بيتا أو حتى بيت أبيها ذاته إن أصر عنتر على دفع التكاليف ولم يجد عمر أمام تصميمها إلا أن يوافق وبسط الأمور لعلى الذى غضب وقال له :

- يعنى إيه يا عمر هتخلى مره تقوم بدفن أبوك ؟

- عيب يا عنتر المرة دى أختك بت الشيخ صالح اللى طول عمره بيفخر بيها .

رد النضر فى تصميم :

- وماتنساش يا أبو محمد إن فاطمة طول عمرها رافعة راسنا، دى اترملت وعمرها ميكملش تمنتاشر سنة. ربت عيالها ورفضت إنها تفرد طولها فى طول راجل بعد المرحوم وحافظت على شرفنا .

- بس عيب على الشنبات لما تقوم هيه بالمصاريف .

رد عمر فى غضب ظاهر على أخيه الأكبر :

- يا أخى متوجعش دماغنا إن كان معاك قرش زيادة اعمل له سبيل ولا اكفل اليتامى اللى أبوك كان كافلهم.

- ده كلام مش محتاج تؤكد عليه طبعاً هعمله سبيل وهدق طرمبة

على راس كل غيط لينا وخليك انت اليتامى اللى كان كافلهم وهمه طبعاً كتير.

كان عبد الرحيم يتحدث والإخوان يستمعون فى نشوة وصفاء ؛ فالحجب السماوية تنزاح والأضواء الربانية تشع. تنقل الجالسين من حال القرب إلى حال الحب ثم إلى حال سجود القلب. بين لهم - العائد منذ ليال ثلاثة من الانصهار الروحى الساجد بقلبه لله - بين لهم السبيل إلى تطهير ساحة القلب من نزغ الشياطين. وعمر جالس بين الإخوان يستمع إليه ويتعلم منه هو الذى سهر على رعايته دوماً. عنتر الذى يصلى الفرض بالكاد كان يجلس بينهم لا يطرف له رمش. تذكر عمر آية من سورة النحل قرأها بصوت عال. هذه الآية جعلت الحاضرين يذوبون شوقا فى الله " يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده "

النساء جالسات بالقرب من قاعة الذكر يبكين. كل واحدة منهن تفكر فى تلك السنين التى مضت وعبد الرحيم أمام أعينهن وكيف كن ينظرن إليه. صباح هى الوحيدة التى كان لديها تشوف لحالة عبد الرحيم دائما ما عاملته على أنه شبه ولى من أولياء الله. قد تأكد ما ظنته دائما.

فى نهاية اليوم الثالث فى العزاء وبعد أن رحل المعزون اجتمع أبناء الشيخ ونساؤهم وأحفاده فى وسط الدار. استند عبد الرحيم

بظهره إلى التوتة. سرح بنظره بعيداً قال عمر:

- أين كنت يا أخى طوال هذه السنين؟

- روحى كانت ممسوكة فى برزخ كالخط بين الظل والشمس.

- كيف وصلت إلى هذه المنزلة ؟

- أراد الله ذلك .فـفـرَّغ قلبى له. أعـرضت عن الأكـوان فناءً فى محبته. فررت من نفسى إليه هناك وجدت محبتى.

كان معظم الناس يعتقدون أن عمرة الدار الغضوب سلبته روحه فى ساعة غضب من تطاوله عليها، لكن الحقيقة التى لا يعلمها أحد أن الشيخ صالح دخل قاعة الشيخ (على) ليتعبد ليلة الجمعة، كان أهل الخطوة ـ كعادتهم ـ مجتمعين فيها للصلاة يؤمهم الخضر عليه السلام بعد انقضاء الصلاة والذكر تركوا القاعة غارقة فى نور ربانى كما الشمس الساطعة . دخل الشيخ صالح يصلى الفجر فى القاعة . سجد سجودا طويلا يجعل الناظر إليه يعتقد أنه فارق الحياة، وعلى عادة عبد الرحيم الذى كان يواظب على الصلاة وخاصة صلاة الفجر رغم صغر سنه .انسل من سريره ونزل ليتوضأ ويصلى وهو ابن السابعة التى تعداها بقليل .، رأى النور يبين من أسفل باب القاعة. دخل. بهره الضوء الساطع. تعلقت روحه بهذا الضوء. سجد بجانب أبيه وسمع صوتا يناديه (لقد سجد قلبك لله لا ترفع رأسك أبدا من سجدته. ثبت قلبك على السجود ولا تسمح له أن يتقلب من حال إلى

حال.) رفع رأسه من سجوده نظر إلى مصدر الصوت القادم إليه من الضوء الباهر. أنهى الشيخ صلاته فوجد ابنه بجانبه ذاهلاً شاخصاً ببصره ربت على كتفه. اعتقد أنه أنهى صلاته فقام وشده من يده حتى ينام فى حجرته. قام عبد الرحيم معه ولم يحدّث أحدا بهذا الأمر أبداً من يومها أصبح دائماً مع الله. دائم السجود. صفى الروح لم يكن يخرج من حالة سجوده تلك إلا المرات القليلة التى يجلس فيها بجانب الجد جود أو فى اللحظات التى يحدث الحاجة عن صيده للسمك أو مساعدته لعمر .

ما زال عبد الرحيم يتكئ على التوتة والجميع يستمع إليه فى وجد سأله عمر:

– هل كنت تعى ما نعانى من أجل ذهولك يا أخى؟

– لى عشرون عاماً أكلم الله، والناس تعتقد أننى أكلمهم. أو يعتقدون أننى أكلّم الجنية التى أمسكت روحى .

كان الكل مشغولاً به وصباح تفكر فى أمر آخر. هل سيمضى عبد الرحيم حياته الباقية دون زواج؟. حضّرت فى ذهنها كل بنات البلد تبحث عن واحدة تليق به لم تجد. احتارت وغرقت فى فكرها ولم تسمع حديث عمر الذى يرتّب مع عنتر أماكن مبيت الأخوان الذين سيحضرون من كل مكان فى الخميس الأول .

حضر الأخوان وبدءوا يقرأون عِدّية يس على روح الشيخ وابن

خالته .عبد الرحيم بينهم يحدثهم عن المحبة الحقيقية التى يذهل فيها العبد عن نفسه. يتصل بربه. شريطة أن يقوم بأداء حقوقه. يعمل ويكد مثل باقى الناس. ينظر إلى الله بقلبه الذى تحرقه الأنوار الإلهية. بيّن لهم أن الولى الحق يجب أن ينكشف له الحق وتزال عنه أستار العين .

لم تغفر يوما موتها

تغيرت أحوال النضر بعد موت زبيدة، نار الفقد جعلته يموت موته الخاص بموتها. شوقه الشديد إليها والطابع الأخوى الذى طبع علاقته بابنة عمه ورفيقته من شقاوة الشباب إلى ليالى القاهرة المضيئة بالوجد والحب لآل البيت، كل هذا جعله يوجه كل طاقاته للطريق. اتجه بمشاعره كلية إلى حب أسمى وعشق أعلى يفنى فيه. صار الملاذ لإخوانه فى الطريق؛ فالرفاق يرونه امتداد الشيخ صالح فى القاهرة، كما يرون أخاه عمر وعبد الرحيم امتداده فى الصعيد؛ فالمنزل الكبير بعد وفاة الشيخ صالح ظل عامراً بأنفاس الإخوان مضيئاً بنورهم الربانى .

ابنتا زبيدة تولّت تربيتهما أم أحمد، حزنت على موتها حزنا دفيناً لم تستطع أن تبوح به. منذ سنوات حين علمت بحملها وكانت جالسة تنقى الأرز استعدادا لليلة المولد وحين انطلقت زغرودة أمها لتشق

الصمت والتوجس اللذين غلفا المكان. حين مالت زبيدة على أذن أمها لتخبرها بالخبر السعيد وحين قالت الأم (مبروك يا أم أحمد جاييلكم ضيف جديد) ساعتها تمنت فايزة أن تموت زبيدة بحملها الذى لا بد سيزيد من ارتباط النضر بها، هل حقاً هى التى كانت جالسة هناك وضرتها تفرّح قلب أمها بحملها هل حقاً هى التى تمنت موتها، من الذى وضع كل هذا الحقد فى قلبها هى الطيبة التى لم تؤذ أحداً عمرها؟ لماذا تمنت موتها وهى التى تركت لها النضر بمحض إرادتها؟ من يومها تشعر بالإثم لموتها، هل مجرد أن نتمنى موت أحدهم يموت، ما علاقة أمنية شريرة لامرأة موجوعة بالموت؟ حاولت تعويض ذلك الشعور بالعطف المبالغ فيه نحو البنتين اللتين كبرتا وصارتا أشبه بأمهما. وربما هذا ما دفع النضر إلى أن يبتعد كلية عن أحوال المنزل، ورعاية الأبناء؛ فكلما نظر فى عيونهما يشعر بنغزة فى قلبه؛ فهما يذكرانه بالحبيبة الراحلة. مال أكثر للعزلة فلم يعد يجلس وسط عائلته بعد العشاء؛ يقرأ لهم ما ينتقى من الكتب التى تحفل بها مكتبته الصغيرة. صارت عادته المحببة إلى نفسه أن يتناول عشاءه ويخرج للصلاة فى المقام النفيس، ثم يذهب إلى أستاذه ووالد حبيبته الراحلة. يصعدان إلى أعلى حيث يتعبّد الشيخ يتذاكران المصابيح المنيرة بحب الله ورسوله، ويقرآن فى سيرة السالكين وطرق العارفين. وحين يهجع الكون ويهدأ صخب القاهرة - التى لا

تنام ـ، يعود إلى منزله يدخل حجرة أحمد وزهير يقبّلهما ثم يدخل إلى حجرة أم أحمد. يبتسم حين يراها تتوسط البنتين وتنام قريرة العين. يرتاح باله ويدخل إلى حجرته لينام ساعات قليلة قبل أن يستيقظ لصلاة الفجر.

تفرغ للعمل نهارا والذكر ورعاية الأخوان ليلا. كبر الأبناء بعيداً عن عيونه لم ينتبه لمرور السنين إلا حين تقدم شابان للزواج من ابنتيه. وافق بعد أن قرأ الموافقة حين أرخت كل من البنتين رموشهما الطويلة، ولم تجب على سؤاله. داخله القلق والهم؛ فزواج بنتين فى وقت واحد لا بد يحتاج إلى تدابير ستكون مكلفة عليه. هو الذى ينفق دخله وما يأتى من البلد على أحباء الله.

اشترت لهما شوارهما من دكان الحاج عطية المرزوقى رفيق النضر فى الطريقة. استقبلها فى دكانه فى الغورية وأخرج لها البضاعة كلها وقال لها

ـ والله يا حاجة أم أحمد البضاعة دى للحبايب بس، دى جاية وصاية من الوكالة الكبيرة علشان البنتين لما سيدنا قالى إنك جاية.

ـ تسلم وتعيش يا حاج عطية ماهما بناتك برضو.

وتركت البنتين اليتيمتين تختاران ما تريدان .وعدت الحاج عطية أن تدفع له ثمن الشوار بالتقسيط .وافق الرجل الذى يحفظ العيش والملح الذى أكله من يدها فى ليالى المولد والذكر. وقفت أم زبيدة

وفايزة تساندان بعضهما البعض فى الفرح وبعد انتهاء الزفة على خير قالت فايزة لأم زبيدة .

كانت آخر الأشياء التى أخذت من النضر البقية الباقية من روحه هو موت زهير ابنه الذى يصغر أحمد بثلاث سنوات، والذى أنهى خدمته العسكرية منذ قليل. أصابته حُمّى مفاجئة. ذهبوا به إلى كثير من الأطباء، ولا أحد يعرف على وجه الدقة أسباب هذا الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة. انتهى الأمر بالأطباءإلى أن سبب المرض حمى شوكية فى المخ.

بعد طول ذهاب للأطباء استقر بهم الأمر أن يرقد على سرير فى حجرة ضيقة فى مستشفى الحميات، فى إمبابة، واجهت فايزة هذه المصيبة بإرادة صلبة لا تلين، وشجاعة نادرة يحتار الواحد فيها. لم تبكِ ولم تجزع، بل تضرعت إلى الله أن يقويها على هذا الامتحان، وجلست بجانبه على السرير تضع قطع الثلج فى كيس من القماش وتمررها طوال الوقت على جبينه وذراعيه وساقيه اللتين تيبستا كأنه عجوز فى السبعين، والنضر جالس على الكرسى المعدنى البارد يردد تسبيحة وحيدة لا تنقطع " يا مغيث ". يستمد من نور ترتيلته الصبر على هذا البلاء، وأم أحمد ترفع رأسها عن ابنها الذى لا يفيق وتطبطب على ظهر النضر المتكوم بجانبها بين الحين والآخر وتقول:

–اصبر يا حاج ده اختبار للمؤمنين

يبتسم فى إشفاق على هذه المرأة التى لا تسمح لنفسها بالضعف أو البكاء، و يصمت. لم ترض أن يأكل ابنها أو زوجها من طعام المستشفى المختلط برائحة المطهرات والمخدر . تذهب كل يوم إلى المنزل تعد الطعام وتطعم الدجاج والإوزات،رغم أن البنتين نور ورحمة كل واحدة عرضت أن تأتى لتجلس فى البيت ترعاه حتى تعود ماما فايزة من المستشفى كما حرصت كل واحدة على نداداتها منذ أول كلمة نطقن بها إلا أنها تصر على أن تعود كل يوم للمنزل ترعى كل شىء بنفسها، وتطمئن على أحمد الذى يجلس مكان والده فى المكتبة، ثم تعود تظل بجانب ابنها حتى موعد انتهاء الزيارة، فتنصرف لأن الأطباء رفضوا مبيتها بجانبه فى عنبر الرجال.

قبل أن تستيقظ الطيور التى تسكن الشجرة التى تظلل شباك عنبر الرجال فى مستشفى الحميات تأتى أم أحمد، تدس فى يد عم حسين البواب جنيها؛ فيدخلها بمجرد حضورها. تفتح شباك العنبر وتدخل هواء الصباح المنعش، تطمئن على المرضى المجاورين لابنها وتعطيهم مما تحضره من طعام وفاكهة. تقبل رأس النضر وتطلب منه الانصراف، وتظل هى جالسة بجانب ابنها الذى لا تنزل حرارته أبداً. تغير له الملاءة وأكياس المخدات بأخرى نظيفة تحضرها من المنزل. تنظف له وجهه بقطعة قماش مغموسة فى الماء. تفعل كل شىء وهى ممتلئة بالأمل فى الشفاء، ينظر إليها النضر فى حيرة.

يلقى السلام وينصرف وهى تقضى يومها بين تلبية طلبات المرضى الذين لا أهل لهم ووضع الكمادات على رأس زهير.

الأخوان والأصدقاء يتوافدون على العنبر لزيارة المريض الغالى. تلهج الألسنة بالدعاء، وتتمنى القلوب الشفاء، وأم أحمد جالسة تنظر فى العيون دون تعليق وقلبها يؤمن على دعواتهم، ولكن مجيب الدعاء كان قد اختار ترتيبا آخر، فقد توفى زهير فى ليلة صيفية طويلة ومقبضة لم تغمض فيها عينها، وقبل الفجر بساعات كانت تدق باب المستشفى، فتح لها عم حسين ومن خلال رموشه التى لم تفق بعد من أثر حلم لذيذ يقول فى تكاسل:

– خير يا أم أحمد هية الساعة كام؟

– معلش يا عم حسين قلقتك، الفجر قرب يدن .

– ادخلى قبل ما حد من الدكاترة ياخد باله

تتسلل إلى العنبر، وتدخل . تجد النضر جالسا على السجادة ينهى قيام الليل. جلست على السرير. وضعت يدها على رأس زهير كانت باردة تماما مثل قطع الثلج التى داومت على وضعها عليها لمدة أسبوعين. قلبها ارتعش خوفا تأكد لها الحلم الغامض الذى رأته أول الليل. غطته بالملاءة البيضاء ووقفت فى شباك العنبر تتفرس فى الظلمة التى تحيط بالمبنى، وتفكر فى مدى حسرة النضر؛ فللمرة الرابعة يفقد أحباءه. ترى ما الذى سيموت فى روحه هذه المرة ؟ بعد

موت الشيخ صالح انكسرت روحه ولم يعد قادراً على مواجهة الألم، صار هشاً يصمت ويطيل الصمت. لم يبق منه شيء. هل ستبكيه أم تبكى ابنها؟. هى لا تستطيع البكاء ولا الصراخ فى مثل هذا الوقت، ولكنها تظل لليال طويلة تبكى وتعض على يديها وشفتيها ويخيل لمن يراها صامتة أنها صابرة. وتقدر على كتم انفعالها، ولكنها فى الحقيقة كانت تحسد فاطمة وتحية على صراخهما وندبهما فى موت الحاج والحاجة. هى التى جلست على عتبة القاعة البحرية لا تبكى ولا تصرخ فقط فى ليالى وحدتها الطويلة تبكيهم جميعاً .يأتونها جميعا فى ليالى وحدتها. تحادثهم، وتقرأ لهم ما تحفظ من آيات القرآن. تستمد من تشجيعهم لها العون والمدد وحين يفيض بقلبها الشوق إليهم تبكيهم. تحسد كل من يستطيع البكاء لحظتها. البكاء فى وحدتها قاس. يحرق قلبها ويوجعه .

الراقد الآن على السرير ابنها الذى أطعمته روحها وسقته قلبها، والجالس بجانب سريره يختم صلاته زوجها الذى لم تعرف أحداً غيره فى منزله تربت وهى بعد صغيرة، ارتبطت عيونها بعيونه، رضاها برضاه، تحملت نزواته، صبرت على زواجه بأخرى، هل سيصبر على موت ابنه، لو مات النضر كيف تواصل الحياة من غيره هل هى قادرة على كتم دموعها وانفعالها من أجل النضر الذى هده الحزن ؟ أم هل ستهرب دموعها مثلما هربت منها فى موت كل

الأحبة الذين فقدتهم ؟

بعد أن أنهى النضر تسابيحه جلست بجانبه ويداها تحتضنان ظهره. تعجب من حالها واستدار بوجهه إليها. كانت عيونها تحمل نظرة لم يرها من قبل. تخلص من ذراعيها وقام مسرعا إلى ابنه وجده جسدا باردا غطاه وبدأ يذكر الله ويضع يده فوق رأسه ولم يلتفت إلى امرأته التى كانت جالسة على الأرض فى وضع توسل تمد يديها ولا تنطق .

فقط روحها المحاربة

صار النضر بعد وفاة زهير أكثر انكفاءً على ذاته، وخرجت أم أحمد أكثر صلابة - رغم بكائها الطويل فى ليالى وحدتها - روحها المحاربة التى جعلتها تتحمل النضر حين كان صديقا لدياب، ولا هم له إلا جلسات المزاج والجرى وراء النسوان هى نفس الروح التى جعلتها تتحمل النضر فى حبه لزبيدة وزواجه منها. هذه الروح هى التى جعلتها تتحمل الفقد وتسند ظهر زوجها وتحميه من حزنه الدفين الذى يأكل قلبه.

الأيام تمضى وأحمد يزداد شبهاً بعمه عمر ذى القلب العامر بحب الله والوجه الشفيف الذى يشعرك حين تراه أنه أخوك أو أحد أقربائك. ألحت عليه فايزة حتى يتزوج ويطرد عناكب الحزن التى

عششت فى القلوب :

- يابنى اتجوز هتفضل لأمته من غير جواز ؟

- إيه يامه الكلام ده، جواز إيه هوه القلب خالى للكلام ده بعد اللى راح؟

- اللى راح عوضه على الله يا بنى، ويمكن جوازك يعوضنا زهير من جديد.

- مينفعش يامه.

- ليه يابنى دى سنة الحياة ويمكن تطرد الحزن اللى عشش على البيت بعد المرحوم، الحزن بيجرجر حزن يا عين أمك.

وافق أحمد على الزواج من سامية ابنة عمه عنتر، واعترض النضر على اختيارها ؛ سامية ابنة الفريصة وهى لا تطاق ولا تصلح أن تكون حماة لابنه الوحيد، أكدت له أن البنت لا تشبه تحية فى شىء؛ هى المليحة الوجه واللسان حلوة الروح. قالت له:

–متخفش يا خويا البت كويسة وحنينة

– بس دى تربية تحية

–أبداً. دى تربية صباح والحاجة الله يرحمها

–البت دايما تطلع لأمها

وافق أحمد على الزواج من سامية، وإن كان فى قرارة نفسه كان يتمنى الزواج من شادية جارتهم التى أحبها فى صمت، واكتفى منها

بنظرات يملؤها الحب والحنان. لم يتجرأ يوما أن تتخطى علاقتهما النظرات المتبادلة. كانت تنتظر فى لهفة أن تنتهى حالة الحزن على أخيه الراحل ويتقدم لها، لكنها لم تصارحه يوما بذلك فهى تدرك مدى الخجل الذى ينتابه. حين تذهب مع أمها لتساعد الحاجة فايزة فى الإعداد للمولد تتعمد الوقوف فى محيط عيونه، ولكنه دائم الهرب منها ولما تذهب ولا تراه تبحث عنه ملهوفة وإن كانت تعرف أنها لن تفوز منه سوى بنظرة خجلة. حين يلمحها قادمة يفر هربا من البيت وقلبه يذوب شوقا. تمنت للحظة أن يبادلها ولو جملة وحيدة. فى المرات القليلة التى كانت تحضر فيها للمنزل و تعرف أنه فى حجرته. تنطلق ضحكتها صافية مجلجلة وكأنها تود أن تسمعه ضحكها وصوتها حين تطلق إحدى الجارات قفشة من قفشات النساء ذات المغزى الذى لا يخفى على أحد. يستمع إلى حديثها مع الجارات وهن يساعدن الحاجة فى الإعداد للمولد. يحبس أنفاسه ويدعو الله مجتهدا ألا تناديه أمه لأمر من الأمور؛ فتعرف بوجوده فى الداخل فتجلس خجلة صامتة، ويحرم من سماع صوتها وضحكاتها. وهو لا يعرف أنها تتعمد الضحك والتعليق بصوت عال يصل إليه فى حجرته. تمنى لو يصارح أباه بهذا الحب الصامت. لم يقدر كعادته. دائما يخجل أن يطلب أى شىء من أبيه، أو يحادثه كما كان يفعل زهير، فحين كانا صغارا .كان يدفع زهيرا ليطلب من أبيه أى شىء

يريدانه رغم أنه يكبره سناً إلا أن المرحوم كان أكثر جرأة. خفة روحه كانت تدفع الأب إلى الموافقة على أى شىء .هل يستطيع الآن أن يقف أمامه ويقول له أريد أن أتزوج من شادية ولا أريد ابنة أخيك؟ من يعيد إليه زهير حتى يدعه يطلب من أبيه أن يزوجه ممن أحب ؟. هل يقدر أن يُحزن أباه؟ أما يكفيه كل هذا الحزن الذى جعله صامتا تماما. حتى الضحكة لا تخطر أبدا على شفتيه. حين سأله أبوه عن رأيه فى سامية رد كما توقعت أمه تماما (اللى تشوفه يا با)

سامية زوجته صورة من أمه. لم تدخر وسعا فى سبيل إرضائه. خلال عام ونصف تقريبا أنجبت له بنتين الكبرى (سناء) والصغرى (فايزة).

شادية فقدت الأمل بزواجه الذى سبب لها صدمة جعلتها تقبل الزواج من أعز أصدقائه. كان صديقه يعلم بحبه لها .كان يشعر بما يدور بينهما من نظرات .حين تزوج أحمد من سامية .تقدم إليها وتزوجها. أنجبت منه ولدا وأسمته أحمد. لم يشعر زوجها بغصة من ابنه الذى حمل اسم صديقه. حين مرض زوجها ورقد فى معهد الأورام، كان يذهب إليه، ويسانده، .يحضر له أدويته التى لم تكن متوفرة فى المعهد. لاحظ الألم فى عيون صديقه؛ فقلل من ذهابه إليه. اكتفى بسؤال أمه عن أحواله. ولما مات وتركها هى وصغيرها. تعمدت أن تضغط على يده وهو يعزيها مما جعله يذوب خجلا وشوقا

إليـهـا، ولكنه تجنب النظر فى عـيونهـا هى التى كـانت تنتظره حـين يذهب إلى منزل والده فى الحسين. كانت تنتظره وهو قادم وتنتظره وهو منصـرف، وهـو دائم الهـرب من نظراتهـا. مـاذا يفـعل؟ هو لا يستطيع تحقيق حلمه القديم. لا يستطيع أن يغضب أم سناء. كيف يفر من نظراتها التى تحاصره؟. كيف يهرب من حبها الذى يسكن فى أعماقه..؟ انتظرته خلف بابها الموارب. تجاهل ظلها الذى يبين فى الضوء المتسرب من بيتها . نادت عليه بصوت هامس. تجاهل نداءها، ولكنه لا يعرف كيف سيتجاهله فى المرات القادمة .

مر أسبوع وهو يتعمد ألا يذهب إلى والديه هرباً منها. محمد ابن عمه عنتر أتى من البلد قبل الذهاب لمركز التجنيد. ترك لأخته ما حملته أمه لها من طيور وزبد وجبن. يدرك أن الفريصة حينما سيعود فى الإجازة القادمة لن تغفرها له وستسوّد عيشته كما صرح للحاج نضر وضحكوا طويلا والحاج يحكى له عن تصرفاتها قديما قال له الحاج :

ـ إلا قولى يا واد يا محمد أمك لسه معفرتة والحاج محمد راكبها.

ـ يعنى هتعقل بتاع إيه؟ دى كل ما بتكبر عقلها بيخف ومش لاقية دلوقتى غير مراتى تفش غلبها فيها، مرات عمى صباح واترحمت منها بعد ما جابت التلات صبيان، وكمان بقالها وضع، وعمتى

فاطمة دلوقتى مركز قوة بتجارتها يعنى متقدرشى عليها، يبقى مفيش قدامها غير مراتى .

- حد قلك اتجوز دلوقتى دانت يا بنى لسه صغير مكملتش عشرين سنة .

- لا ياعمى عمرى اتنين وعشرين سنة بس أنا اللى خدت تأجيل سنتين.

- دى البت أميرة قوى زى أمها، ومن عيلة غلابه ملهمشى فى المشاكل ولا الكلام ولا الحديت.

ضحكت فايزة وقالت لمحمد :

- طبعاً اسأل عمك عن أمها أصلها من ضمن الحبايب القدام.

- إلا يا فايزة دى كانت طويلة، فرسة ورقبتها زى كوز العسل .

- يا حاج اختشى انت بقيت جد، دى سناء بنت أحمد مخطوبة يعنى سنة كمان وتشوف تالت جيل ليك.

- يعنى يا أختى أنا لوحدى ما انتى كمان كبرتى .

- ماتنكرش إنى أنا أصغر منك بسنين أنا من دور فاطمة.

- ويعنى فاطمة هيه اللى صغيرة ؟ ما الواد ابنها باسم الله ما شاء الله خلّص تعليمه وقرب كمان يخلّص جيش .

- طيب بذمتك يا أبو أحمد أنا مش أنا لسه بخيرى ولا الزمن عمل عمايله معاى ؟

ـ بصراحة انتى أجمد بكتير من أم البت مرات محمد هيه مراتك اسمها إيه يا وله ؟.

ـ اسمها نادية يا عمى .

ـ وأمها كان اسمها عزيزة كنا دايماً بنضحك معاها وهى صغيرة ونقول لها يا حبيبة يونس، وهيه تزعل وتجرى ورانا أنا وعمك دياب الله يرحمه بالطوب.

فرحت فايزة مثل الأطفال من مزاح النضر لأول مرة منذ سنين يغازلها ويمزح معها. بعد موت الأحبة و أخرهم زهير كان النضر قد انكفأ على ذاته. تعود إليه روحه المرحة. تشعر الآن أنه تعافى من أحزانه التى طالت. استبشرت بمحمد خيراً وطلبت منه أن يأتى إليهم إذا أخذ إجازة قصيرة يمضيها بصحبة عمه. وعدها محمد أن يأتى إليهم فى أول إجازة وانصرف.

حين اقترب من منزلها نظر فى وجل يتمنى أن يراها، وفى نفس الوقت يخشى رؤيتها، لمحها تجلس على باب البيت تبيع العسلية والنداغة للصغار، حين مر من أمامها ألقى عليها السلام وسأل عن أحمد الصغير، سميه، وأراد الدخول إلى منزلهم بسرعة قبل أن يعطيها الفرصة للحديث ولكنها بصوت ملهوف استوقفته .نظر إليها فى ود وقال لها بعد أن سلّم على حماتها التى خرجت على صوته :

ـ أأمرى يا أم أحمد.

- لأ هوه فيه أم أحمد غير الحاجة فايزة. ده لقب مانقدرشى عليه.

- ما انتى برضو أم أحمد أمال أقول إيه ؟

فى جرأة تعجب لها، وعدم خوف من حماتها التى تقف بجانبها قالت له وهى تركز عيونها فى عيونه :

- شادية زى زمان ولا نسيت اسمى.

- لأ إزاى مانسيتشى ولا حاجة بس أم أحمد نوع من الاحترام .

- ما علينا نادينى باللى انت عايزه بس قولى عايزة أقدم لأحمد فى المدرسة اعمل إيه ؟ .

- هاتى شهادة الميلاد وأنا بكرة أروح المدرسة وأشوف إيه الطلبات .

- متشكرين يا ابنى ما انت مطرح المرحوم اللى كان روحه فيك.

- أى خدمة يا حاجة ده ابنى واسمه على اسمى .لازم يتعلم ويطلع حاجة كبيرة إن شاء الله .

تعمدت شادية أن تنظر إليه نظرة فيها حب وتحدى وتصميم ومدت يدها لتشكره، خطف يده من يدها وانفلت إلى منزل أبيه الذى كان واقفاً فى الشباك ينتظره حين لمحه من بعيد .

حين صعد السلم كانت فايزة بانتظاره على الباب. أخبرها الأب الذى كان يراقب الموقف عن انتظار شادية له والمحادثة القصيرة

التى انفلت على إثرها الشيخ أحمد إلى داخل المنزل رحبت به الأم وقالت له :

- إيه يا أبو سناء شادية عايزة منك إيه .؟

- أبدا يا حاجه دى عايزة تقدم لابنها فى المدرسة ؟

- طيب وماله ياحبيبى ما تروح لأقرب مدرسة فى الدراسة وتقدم له وانت مالك ؟

- إيه ياحاجة مافيش داعى للقلق ده، دى مرات صاحبى برضو والولد ده زى ابنى .

- لأ يا شيخ احمد ابعد عن السكة دى متكررش اللى عمله أبوك. سامية بنت عمك وشايلاك، وبنتك سناء مخطوبة وفايزة خلاص داخلة الإعدادية.

- وأنا عملت إيه؟ أنا بس بعطف على العيل اليتيم . وأدينى فى حالى .

- لأ يابنى حماتها من كام يوم كانت عندنا ويظهر قلقانة من عمايل مرات ابنها وجاية تشوف رد فعلنا على رسم شادية عليك .

- متخفيش يامه أنا عمرى ما هظلم أم سناء .

الشيخ أحمد

عنف الشيخ أحمد الشاب الذى يصعد إليه بقصعة المونة على

تكاسله، ثم وضع آخر طوبة فى مكانها وقفز إلى الأرض. رفع بصره إلى الحائط المتسق دون ميل، ومرر إصبعيه على شنبه وقال فى فخر ظاهر

- عين الحر ميزان شايف يا واد يا محمود .

صفق الشاب بيديه وقال:

-يا سلام يا عم الشيخ ولا ميزان ميه ولا يحزنون

- بطل غلبة ولم الحاجة وخلينا نروح .

عاود الشيخ أحمد النظر إلى الحائط المتسق وابتسم ابتسامة رضا، ثم دب يده فى جيب الصديرى وأخرج من محفظته الجلدية خمسة جنيهات وأعطاها للشاب الذى رفض أخذها، ربت على ظهر الشاب الذى يتمايل بجواره طوال الليل فى حلقة الذكر، وقال له

: خد دول بس علشان لو عايز تشترى لإخواتك فاكهة .

- لما تحاسب صاحب البيت يا سيدنا.

- معلش بكره الحساب يجمع، خد دول مؤقتا.

ثم ارتدى جلبابه النظيف وساعده الشاب فى جمع عدته واتجه إلى المنزل الراقد هناك فى حضن الجبل فى الدويقة.

فايزة وسناء في انتظاره على الباب. أسرعت فايزة لتحمل عنه العدة، كانت أم سناء قد أعدت له الحمام ووضعت الماورد فى الماء الساخن .خرج من الحمام. جلس بملابسه الداخلية الناصعة

البـيـاض. تنحنح ونادى على أم سناء أن تأتى بالطعـام. جلست البنتان بجانبه .اغتاظت امرأته حين أخبرها أن الطعام الذى أكله فى المنزل الذى يبنيـه اليـوم أجـمل من طعـامـهـا، وأن المرأة التى أحضرت لهم الطعام فرسة جامحة. أقسمت بالله أنها لن تأكل .دخلت حـجـرتهـا غـاضـبـة وجلست على السرير منتظرة مـجـيـئـه ليصالحـها. هو يعرف تماما أنها فى انتظاره، وأنها تتسمع لأدنى حركة يقوم بها .تعمد أن يتأخر قليلا ولكن سناء قالت له:

–علشان خاطرى يا بابا قوم صالحها قبل ما تكبر فى دماغها

– سيبيها شوية وهيه هتيجى

– أنت عارفها. إدخلها علشان خاطرى دى مكلتش من الصبح ومستنياك

قام إليها وجرها من يدها وخبط بيده على مؤخرتها التى ما زالت بضة، ونطق بجملته التى تنتظرها دائما:

– لسه فيكى الخير يا أم سناء. هوه فيه زى نفسك فى الأكل، أنت لسه بتغيرى يا مره ؟ بناتك على وش جواز.

فرحت المرأة وضحكت من قلبها وقالت :

ـ آه يا خويا بغير ولا كبرت ... وبعدين أنا هقعد على يمينك ده مكانى .

تركت لها سناء مكانها؛ فهى تحب الجلوس على يمينه. وفايزة

عن يساره أما سناء فهى ترضى كل الرضا بترك مكانها لأمها. بعد العشاء ارتدى جلبابه المزهر والمعلق بعناية على الشماعة خلف باب حجرة النوم.لف الشال على رأسه وتعطر بالمسك الذى يداوم على إحضاره من عم رجب بائع العطور فى الحسين، وخرج، والمرأة تنظر إليه ولهانة وخائفة من كل مرة ينزل فيها إلى الحسين، قالت وجلة :

- سلم على عمى والحاجة .. وتعالى بدرى علشان الجبل بالليل متلبش.

- اتركيها لله.

نزل من الجبل متمهلا فى الشارع الطويل الذى ينتهى بالطريق العمومى ومنه إلى منشية ناصر ومن هناك يركب الميكروباص إلى حيث يسكن والده الحاج نضر بجوار الحسين. فى الطريق كان يتفادى البرك الصغيرة التى تكونت أمام المنازل بسبب المجارى التى تطفح دائما. ينقل قدميه من حجر إلى حجر. لا يتوقف إلا أمام دكان الحاج محمد الذى أصرّ على أن يدخل ليشرب معه الشاى قال له:

- معلش رايح للحاج .

يضحك الحاج محمد ضحكة لها مغزى ويقول له:

-أيوه يا سيدى رايح للجو.

- بطل شقاوة واعقل أنا رايح للحاج زمان الذكر منصوب .

-اطلع من دول. يعنى مش هتبص بصة على أم أحمد اللى رقبتها

زى كوز العسل والحلق أبو مراية يتمايل عليها؟

– والله أنت رايق يا حاج وأنا مش فايقلك، ما تيجى تذكر لك شوية وتزيح هموم القلب

ـ وهوه الذِّكر يزيح الهم؟ لأ يا عم أنا قاعد على باب الدكان أتفرج على البنات العدالة هوه ده اللى يشيل الهم بصحيح

–أنت حاج أنت ؟ أكيد حجيت ع الفرن على رأى جدى صالح الله يرحمه.

ـ الله يرحم جدك يا أخى بس أنا مابحسش إنى عايش غير لما أقعد كده وأتفرج على الصبايا وهم رايحين جايين .يمكن أقدر أعلق مع واحدة ترجعلى شبابى اللى كلته بلدياتك، البنات العدالة الفرجة عليهم ترد الروح. .

ـ أم محمود دى ست أميرة. وكويس إنها مستحملاك والله لو واحدة من بتوع الدراسة ولا حتى الدويقة ماكنتش صبرت أبداً على شقاوتك، دانت يا أخى زى العيل المراهق والست عارفة وصابرة .

ـ يعنى يا أخويا فى إيديها إيه؟ تقدر تطلقنى ؟ خليها تروح للصعايدة بتوعها.

ـ كانت شورة غبرة ومعرفة طين تلاقى الست بتدعى على الحاج نضر وعلى أمى سبب المعرفة .

ـ هيه تطول تكون تحت واحد زيى، وبعدين متقدرش تجيب سيرة

سيدنا ومرات سيدنا دا أنا أقطع رقبتها .

- يلا أسيبك علشان اتأخرت .

- يا عم خليك شوية .اشرب الشاى بس.

- يبقى لى شاى. سلام عليكم.

سار فى طريقه، ولم يرد على مزاح الحاج محمد الذى اتخذه تكأة ليغازل فتاة تمر فى تلك اللحظة، كان محلقا فى عالم آخر. كان يتمنى أن يراها. قلبه يحدثه أنها بانتظاره. على ناصية الشارع كانت شادية تجلس لتبيع للصغار الحلوى والسودانى وحمص الشام .ابنها أحمد يلعب جوارها. حين رأته رمته بنظرة أصابت قلبه تماما، ثم أرخت رموشها الكحيلة فى دلال ساحر. سار مرتبكا يتحاشى النظر فى وجهها .الصغير رآه، فترك الكرة .جرى إليه. احتضن ساقيه، فمال الشيخ أحمد على رأسه قبلها .

أخرج محفظته، وأعطاه جنيها، قامت مسرعة، وخلصت الصغير من حضنه وقالت :

- مايصحش كده مش كل ليلة.

ولم تنس وهى تخلص الصغير من حضنه أن تدع يدها تلمسه لمسات خفيفة اهتز لها جسده كله، وغاب لحظة، وشعر كأن قدميه تطيران به. عاد إليها وهى واقفة جواره، وما زالت تحتضن الصغير و تسدد سهامها فى عينيه. لم تخش حماتها الجالسة على عتبة

الباب، ترقبها وتتملى فى وجه الشيخ أحمد الذى يعكس انفعالات روحه .تمالك نفسه .سار إلى المنزل وهو يرتل الأدعية بصوت قصد أن يكون عالياً حتى يطرد طيفها الذى يملك روحه فى تلك اللحظة .صعد السلم . سمعت صوته الحاجة فايزة. أسرعت إليه وألقت بنفسها عليه قبل رأسها ويديها. فلكزته فى صدره وقالت له :

- أنت يا واد قاسى كده ليه .. من يومين ماطلتش علينا، وإزى أم سناء والبنتين ؟

مال على يديها يقبلهما وقال :

- بيبوسو إيديك يا حاجة.

- ربنا يسعدك يا ابنى بالولد الصالح علشان يلبس العمامة من بعدك.

لما سمع أبوه صوته ترك الرجال الملتفين فى حجرة الذكر . خرج إليه احتضنه، ولف ذراعه حول جسده. دخل به على الذاكرين. ألبسه العمامة الخضراء ووضع على كتفيه شالا رُسم عليه سيف ومصحف ومكتوب تحتهما لا إله إلا الله شيخ الطرق الصوفية. تعجب الشيخ أحمد من تصرف والده، ولكن الوالد لم يعطه فرصة للكلام، بل قدمه إلى وسط الحلقة وطلب منه أن يقوم بالإنشاد. حاول أن يقدم والده ولكن الأب قال له سأردد وراءك حان الوقت لتدير أنت الحلقة.

ارتجف الشيخ أحمد وهو يحكى لهم عن قاض فى مدينة

الإسكندرية كان يتعسف مع مريدى سيدى إبراهيم الدسوقى فأرسل إليه سيدى إبراهيم رسالة مكتوب فيها :

سهام الليل صائبة المرامى
إ ذا وترت بأوتار الخشوع

يصوبها إلى المرمى رجال
يطيلون السجود مع الركوع

بألسنة تهمهم فى الدعاء
وأجفان تفيض من الدموع

إذا أوترن ثم رمين سهماً
فما يغنى التحصن بالدروع

هلل الذاكرون وكبروا حين أكمل لهم حكاية القاضى الذى كان يُنكر على المريدين أحوالهم، ويضطهدهم باسم الدين ويتهمهم بالشعوذة . حين أكمل القاضى المنكر للأحوال رسالة إبراهيم الدسوقى خرج من الرسالة سهم اخترق صدره، فخر ميتاً. تعجب السامعون من كرامات الأولياء، وطلبوا من الشيخ أحمد أن ينشد لهم شعراً لأحد الأقطاب، فأنشد أبياتا لابن الفارض والرجال يتمايلون على صوته الرخيم الذى يشبه إلى حد بعيد صوت والده. لم يقطع إنشاده إلا سقوط والده وارتطام جسده على الأرض.

كبّر الذاكرون وقال أحدهم :

- لا إله إلا الله الحاج نضر طاف، وخرج الريم من فمه.

توقف الذكر وانشغل هو والرجال فى إفاقة والده. بعد أن أفاق انصرف الرجال ودخلت أمه تمسك بيدها كوبا من عصير الليمون، وضعت ذراعها خلف رأسه وقربت الكوب من فمه. شرب العصير الطازج .نظر إليها بعطف. أراح رأسه على ذراعها. استأذن أحمد والده فى الانصراف. حاولت أمه أن تجعله ينام الليلة فى المنزل لأنها قلقة على أبيه و عليه أن يعود إلى الجبل بعد أن تأخر الليل. طمأنها وقبل رأس أبيه وخرج من الحجرة. ضحك الأب ساخرا وقال بصوت واهن :

- ابنك ما يقدرش يبعد مؤخرته عن مؤخرة أم سناء ولو ليلة وحيدة، خبطته الحاجة فى كتفه وقالت :

- ما تسيب الواد يا نضر. خَجِّلْته يا نن عين أمه. مش كفاية سيبت ركبنا وهربت دمنا .

- تفتكرى ابنك يقدر يبعد عن أم سناء ليلة واحدة ؟

- ربنا يحنن قلبه عليها وبعدين هيطلع لمين، من شابه أباه ما ظلم.

- الحكاية مش كده يابا. بس البنات فى الجبل ومقدرش أسيبهم يباتوا لوحدهم .البيت لسه مكملش دلوقتى يعتبر مَنطّ والصيع فى المنطقة كتير .

- قلناك بيعه وتعال اشتر حته هنا .

- ما أنت عارف سعر المتر فى الحسين وصل أكتر من الألف إذا كان فى المنشية وصل ألف يعنى البيت وما فيه ميجبش خمسين متر هنا .

- حد قالك يا ابنى سيب البيت ماهو كان سايعنا كلنا وخلاص.

- يابا حبايبنا كتير طول السنة، الإخوان دايما فى البيت شتى وصيف، وأنا معايا بنتين ولازملهم كل واحدة أوضة، وبعدين مش هنعيده تانى.

انصرف النضر بوجهه إلى امرأته التى صار وجهها أصفر كما الليمونة، وربت على مؤخرتها وقال لها :

- اتخضيتى عليه يا فُوز يا جميل، وبعدين ماله أبوه طول عمرك ميته فيه ولا شوية الأغمى دول هيخلوكى تعيدى نظر ؟

- طول عمرك مدوخنى معاك لسه هعيد نظر بعد العمر ده كله .

- مدوخك معايا ولا مدوخك فيا. اعترفى يا أم أحمد.

خجل الابن من كلام أبيه وانصرف وهو يضحك عليهما .تظهر فى مخيلته التى لا تبدو بعيدة فى تلك اللحظة صورة أبيه، وعشقه لزبيدة الذى ملك عليه نفسه، وزواجه منها، دون خوف من الشيخ صالح. ابتسم لصبر هذه المرأة المناضلة والمكافحة دوماً من أجل الاحتفاظ به، وردها لكثير من مكائد النسوان كما تردد دوما من

أجل سرقة رجلها منها. كانت أمه فى تلك اللحظة تدعو له أن يرزقه بالولد الصالح حتى يرث العمامة الخضراء من بعده. نزل السلم متمهلا وهو يتساءل فى نفسه هل ما زالت فى انتظاره أم أنها أغلقت بابها عليها هى وطفلها ونامت.

أخرج رأسه من باب البيت، فوجد ظلها يبين من وراء الباب، نادته بصوت هامس. يجاهد نفسه تماما حتى لا يلبى نداءها. أسرع من أمامها كأنه لم يسمعها. وفى الطريق لم يكن يسمع إلا صوت قلبه الذى يلومه على عدم إجابة ندائها. نظراتها تخترقه. كل ليلة يحلم بها تأتيه فى زينتها وتمد إليه يدها، وهو لا يستطيع الاقتراب منها. الطريق يطول وهو ما زال يفكر فيها. اقترب من البيت، لمح أم سناء تقف على سطح الدار فى انتظاره. نزلت مسرعة .فتحت له الباب . تحتضنه بشوق كأنه غاب عنها دهراً كاملاً. يحدق فى عينيها ويلمح الخوف والحيرة فيهما فهى تعرف تماما شغفه الذى يدفنه فى قلبه. تعرف حبه لأم أحمد زوجة صديقه الذى أوصاه بها وبابنها. تحاول أن تدارى خوفها. دون إرادة منها تنسال دمعات على خديها، يلمح الدموع . يشعر بخوفها، ولكنه يفر بعينيه بعيدا.

قالت بصوت يملؤه الشجن :

- أخبارعمى ومرات عمى إيه ؟

- بعد يومين مولد الحسين والحاجة بتفكرك تروحيلها من بكره

علشان تجهزوا للحبايب ـ كل سنة وأنت طيب أكيد الجماعة جيين بكره من الصعيد .

ـ عمى عمر و أولاده ومرات عمك صباح جايين أكيد .

ـ لو أبويا وأمى يعملوها مره وييجوا ؟

ـ عمى عنتر أكيد مش فاضى ومش معقول مرات عمى تحية هتيجى لوحدها .

ـ طيب كانت تيجى مره تسأل على هيه ولا أبويا .

ـ محمد أخوكى لسه جيبلك شى وشويات من خير أبوكى وبعدين ما أنا أخوكى وأبوكى ولا أنا مش كفاية ؟

تبتسم فى امتنان و تبعد وجهها عن وجهه وتدارى الدموع التى غافلتها ونزلت على خديها. يضمها إليه ويحاول أن يطمئنها وأن يبعد الشكوك عن قلبها. ربّت على ظهرها. ضغط على جسدها بذراعيه ودخلا إلى الحجرة. دفنت رأسها فى حضنه ونامت. كان صوت أم أحمد مازال يتردد داخله وهو يفكر إلى متى سيظل قادرا على الهروب، وهل يكفى ولاؤه لابنة عمه أن يجعله قادراً على الفرار من امرأة تمناها طويلا وراح يتذكر تردده الدائم الذى جعلها تضيع من يده من قبل؟ وللمرة الأولى خرج السؤال من قلبه وارتسم على صفحة الهواء أمامه.هل يستطيع التضحية بها من جديد ؟

القاهرة – ٢٠٠٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٠٢٠٢
الترقيم الدولى: 977-437-324-5

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)